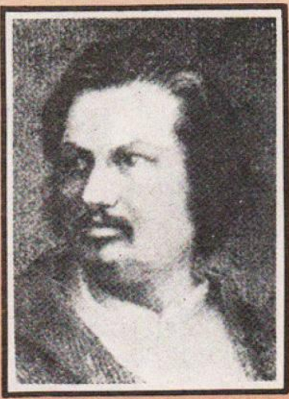


بلزاك

الملهاة الانسانية

العازبون

الرّواية الثانية

كاهن تور

دراسات طبائع

مشاهد من حياة المقاطعات

ترجمة

ميشيل خوري

روايات بلزاك ٢٩

بلزاك

الملهاة الإنسانية

العازبون

الرّواية الثانية

كاهن تور

دراسات طبائع

مشاهد من حياة المقاطعات

ترجمة

ميشيل خوري

منشورات وزارة الثقافة

في الجمهورية العربية السورية

دمشق ٢٠٠٠

العنوان الأصلي للكتاب

BALZAC

La Comédie humaine

LES CÉLIBATAIRES

DEUSIÈME HISTOIRE

LE CURÉ DE TOURS

Études de Moeurs

Scènes de la vie de Province

الملهـاة الإنسـانيـة = La Comédie humaine/ بلزاك؛ ترجـمـة مـيـشـيل خـوري . - دمشق: وزارة الثقافة، ٢٠٠٠ . - [٣ج]؛ ٢٤ سم . - (روايات بلزاك؛ ٢٨-٣٠).

المحتـوى: العـازبون . - الرواية الأولى: بيـيريت، الرواية الثـانيـة: كـاهن تور، الرواية الثالثة: المتصيدة.

١- ٨٤٣ ف ب ل ز م ٢- العنوان الأول ٣- العنوان الموازي
٤- العنوان الثاني ٥- العنوان الثالث ٦- العنوان الرابع
٧- العنوان الخامس ٨- بلزاك ٩- خوري
١٠- السلسلة مكتبـة الأسـد

الايداع القانوني: ع - ١٤٠٤ / ٨ / ٢٠٠٠

روايات بلزاك

« ٢٩ »

الإهداء

إلى دافيد[1]، المثال

إن عمر المؤلف الذي أسجل عليه اسمك، المضاعف الشهرة في هذا القرن، مشكوك فيه، بينما اسمي الذي نقشته على البرونز أطول عمراً من الأمم، حتى لو أنه ضرب بمطرقة سكَّاك النقود المبتذلة. ألن يرتبك علماء المسكوكات من عدد الرؤوس المتوجة في محترفك، عندما سيجدون مجدداً بين رماد باريس هذه الكائنات التي خلدتها إلى مابعد حياة الشعوب، والتي يريدون أن يروا فيها سلالات المشاهير؟

لكَ إذاً هذه الهبة الإلهية، ولي عرفان الجميل.

دي بلزاك

(١) دافيد أنجه (بيير جان) «١٧٨٨-١٨٥٦» نحات فرنسي، مزخرف جبهة البانتيون في باريس، ومشكل رصائع ونوطات وتماثيل نصفية لشخصيات شهيرة عديدة، منها بلزاك وقد وضع له رصيعتين ورسماً، وتمثالاً نصفياً يوجد حالياً في متحف كرنفاله بينما نسخته من البرونز تزيّن مدفن بلزاك في مقبرة الأب لاشيز.

كاهن تور

في بدء خريف العام ١٨٢٦ فوجئ الأب بيروتو الشخصية الرئيسة في هذه القصة بمدرار من المطر وهو عائد من المنزل الذي قضى فيه سهرته، فاجتاز بالسرعة التي مكنته بها بدانته الساحة الصغيرة الخالية المسماة الرواق (الأنطش) أو بيت الكاهن، الموجودة خلف صدر كنيسة سان غاتيان في تور.

والأب بيروتو رجل قصير القامة ذو بنية سكتية[1]، عمره حوالي ستون سنة، وقد تعرض لعدة هجمات نقرس، والحال إن أكثر مايخشاه الكاهن الطيب من هموم الحياة الصغيرة وينظر إليه بمزيد من الحذر هو التبلل المفاجئ لحذائه ذي الإبزيم الفضي العريض وترطب نعليه، والواقع أنه بالرغم من جوارب الفانيلا التي يدثر بها قدميه بما عُرف عن رجال الكهنوت من عناية بأنفسهم، فإن بعض الرطوبة تصل إليهما دائماً، وفي اليوم التالي تبرهن له آلام النقرس أن هذا الداء مايزال معنداً فيه. لكن بما أن بلاط الأنطش جاف دائماً، وبما أن الأب بيروتو كسب ثلاثة فرنكات وعشرة فلوس في لعبة الوست لدى السيدة دي ليستومير فقد تحمل المطر بصبر عندما أخذ يتساقط مدراراً منذ وصوله إلى ساحة المطرانية؛ عدا أنه في تلك اللحظة كان يداعب وهماً حالماً، رغبة تخامره منذ اثني عشر عاماً، أمنية كاهن! فهذه الأمنية التي تراود خياله كل أمسية بدت وكأنها توشك أن تتحقق. أخيراً فإنه كان متدثراً بفروة كهنوتية تقيه جيداً تقلبات الجو: وخلال السهرة فإن الأشخاص المجتمعين لدى السيدة دي ليستومير أكدوا له تقريباً تسميته كاهناً قانونياً في مجلس أسقفية سان غاتيان وهم يقيمون الدليل على أن مامن أحد أفضل منه لهذا المنصب الشاغر، وأن حقوقه المغمورة منذ مدة طويلة لاتقبل المنازعة. لو أنه خسر في اللعب، أو أنبئ أن الأب بوارل منافسه رقي إلى رتبة كاهن قانوني، لوجد عندئذ المطر أكثر

(١) سكتي: مايتعلق بالسكتة أو ماتسببه السكتة، وهي حالة مرضية تنجم عن آفات كالنزف أو الخثار أو الصمامة وأخطرها مايتم في الدماغ لكن يمكن أن تتم في متون أعضاء أخرى من الجسم كالكلي والطحال والرئة، إلخ...

برودة، ولحنق آنذاك على الوجود، لكنه كان يمر بإحدى تلك الظروف من الحياة التي تُنسي أحاسيس سعيدة فيها كل شيء، وكان اندفاعه وهو يسرع الخطا، بحركة آلية تلزم الحقيقة الرئيسة في قصة عن دراسة الطبائع، على القول أنه لم يكن يفكر لافي هطول المطر ولا في النقرس.

في السابق كان يوجد في الأنطش، من جهة الشارع الكبير، عدة بيوت يضمها سور، وهي تعود إلى الكاتدرائية، ويسكن فيها بعض أصحاب المقامات من مجلس الكهنة. ومنذ تأميم أملاك الإكليروس جعلت المدينة من المدخل الذي يفصل هذه البيوت شارعاً باسم شارع بسالت[١]، وهو يصل بين الأنطش والشارع الكبير، وهذا الاسم يشير بشكل كاف إلى مكان إقامة رئيس الجوقة وأولئك الذين يتبعون له من المنشدين مع أماكن دراستهم وتدريبهم. والجانب الأيسر من هذا الشارع ينشغل ببناء واحد تخترق جدرانه دعامات سان غاتيان القوسية المتجذرة في حديقته الصغيرة الضيقة بحيث تثير التساؤل عما إذا كانت الكاتدرائية قد شيدت قبل أو بعد ذلك البناء العتيق. لكن بفحص الزخرفات وشكل النوافذ، وقنطرة الباب، والشكل الخارجي لذلك المنزل المسمر بفعل الزمن، يكتشف عالم الآثار بأنه كان دائماً قسماً من تلك الأوابد الرائعة المقترن بها، فهذا الآثاري إن وجد في تور، وهي إحدى مدن فرنسة الأقل اهتماماً بالآداب[٢]، يمكنه أن يتعرف حتى في مدخل الممر إلى الرواق على بعض بقايا صف القناطر المشكل سابقاً لمدخل تلك المساكن الكهنوتية، والمتوجب أن ينسجم مع الطابع العام للبناء. وهذا المنزل موجود باستمرار في أفناء تلك الكاتدرائية الكبيرة حيث طبع الزمن تغضناته، ونشر برده الرطب وطحالبه وأعشابه العاليةوخلع معطفه الأسود، وهكذا كان محاطاً دائماً

(١) بسالت PSALLETTE : مدرسة موسيقى تشكل جزءاً من كنيسةيتدرب فيها الأولاد على الترتيل الديني.

(٢) ملاحظةتعبر عن حكم بلزاك القاسي على طبع أهل مقاطعة تورين التي ولد فيها.

بصمت عميق لايقطعه إلا قرع الأجراس، أو ترتيل القداديس المخترق لجدران الكنيسة، أو زعيق الغربان المعششة في قمة قباب الأجراس، فهذا المكان صحراء حجرية، عزلة ممتلئة بالمظهر، لايمكن أن يسكنه إلا الكائنات التي وصلت إلى عجز كامل أو وُهبت قوة روح خارقة، والمنزل المعني شُغل دائماً من قبل رهبان، وهو يعود إلى عانس تسمى الآنسة غامار، وبالرغم من أن هذه الملكية قد اكتسبت من الأمة، خلال عهد الإرهاب، من قبل والد الآنسة غامار، وبما أن هذه العانس تسكن منذ عشرين سنة في هذا البيت كهنة، ما من أحد عنّ له أن يجد سوءاً خلال عهد الملكية الثانية في أن تحتفظ سيدة ورعة بملكية وطنية، وربما افترض المتدينون أن في نيتها أن توصي به إلى مجلس الكهنة القانونيين وبذلك لم يرَ عامة الناس أن مصيره سيتغير.

كان الأب بيروتو يتوجه إذاً نحو ذلك المنزل حيث يسكن منذ سنتين، وكانت شقته فيه، كقوننته محط آماله وغاية مناه، خلال عقدمن الزمن، فتسميته كاهناً قانونياً، وحلوله ضيفاً على الآنسة غامار هما الهدفان الكبيران في حياته اللذان يختصران على الأرجح، بشكل تام، طموح كاهن، لايتمنى وهو يعتبر نفسه في رحلة نحو الأبدية، إلا مسكناً مريحاً، ومائدة عامرة، وثياباً نظيفة، وحذاء ذا إبزيم من فضة، وهي أشياء تفي بحاجات الكائن البهيمي، أما القوننة فتشبع حبّ بالذات، تلك العاطفة المخفية التي تتبعنا على مايقال، حتى على مقربة من الله، إذ أن بين القديسين درجات متفاوتة. لكن حيازة الشقة التي كان يسكنها، هذا الشعور التافه في أعين الناس، كان بالنسبة إليه هوى جامحاً، هوى مليئاً بالعوائق، كأكثر الأهواء إجراماً، مليئاً بالآمال والمسرات وتبكيت الضمير. لم تسمح سعة المنزل وتوزيعه الداخلي للآنسة غامار أن تأوي أكثر من نزيلين فيه[1]، وقد كانت، قبل

---

(١) عبارة رئيسة لم يكن للقصة كيان دونها. والواقع إن فحصنا عن قرب المعطيات المقدمة من المؤلف (وهي قليلة الوضوح) نجد أن المنزل أكبر مما أراد بلزاك التعبير عنه فهو يتألف من بناءين متعامدين:
آ ـ بناء موجه نحو الجنوب ويتألف من
ـ طابق أرضي فيه: صالة + غرفة طعام + ؟ + ؟. ـــــــــــ يتبع

نحو اثني عشر عاماً، من إقامة بيروتو لديها تتكفل بكل مايحقق بهجة وعافية الأب تروبير والأب شابلو، وعندموت الأب شابلو [١] حل بيروتو مباشرة محله.

كان المرحوم الأب شابلو، وهو في حياته الكاهن القانوني لسان غاتيان، صديقاً حميماً للأب بيروتو، وفي كل مرة كان يدخل هذا الأب إلى شقة صديقه يعبر باستمرار عن إعجابه بها، وبأثاثها، ومكتبها. ومن هذا الإعجاب تولدت الرغبة بامتلاك هذه الأشياء الجميلة؛ وكان من المستحيل على الأب بيروتو أن يخمد هذه الرغبة التي كانت تؤلمه بشدة غالباً عندما يفكر بأن موت أحسن أصدقائه يمكنه وحده أن يحقق هذا الجشع الخفي المتزايد باستمرار.

لم يكن الأب شابلو وصديقه بيروتو غنيين، وهما ابنا فلاحين لايملكان شيئاً إلا الراتب الضعيف الذي كان يمنح للكهنة، وقد استخدما مدخراتهما البسيطة في اجتياز الأزمنة الصعبة في عهدالثورة؛ وعندما أعاد نابوليون العبادة إلى سابق عهدها، سمّي الأب شابلو كاهناً قانونياً لسان غاتيان، وغدا بيروتو وكيلاً للكاتدرائية، وأنزلت الآنسة غامار الأب شابلو ضيفاً مقيماً لديها؛ وعندما حضر الأب بيروتو لزيارة الكاهن القانوني في مسكنه الجديد، وجد الشقة موزعة بإتقان،

ـ طابق أول (مسكن بيروتو) وفيه: صالة + غرفة نوم + رواق + مصلى.

ب ـ بناء رئيس مطل على الشارع ويتألف من:

طابق أرضي (مسكن تروبير) وفيه: غرفة نوم + غرفةمكتب + ؟.

طابق أول (مسكن الآنسة غامار): دون أية إيضاحات. وخاصة عن موقع المطبخ.

في هذا التصور فإن نقاط الاستفهام تتركز على فجوات لم يوضحها وصف المنزل وخاصة:

١) ماذا يوجد تحت رواق شقة بيروتو (هذا الرواق الكبير)؟

٢) من المستحيل أن تشغل شقة تروبير الضيقة لوحدها (حتى لو ضم إليها المطبخ) كامل الطابق الأرضي في البناء الرئيس الذي يشغل كل جانب شارع بسالت.

الشرح الوحيد هو أنه يتعذر على الخيال الروائي أن يتصور أن ليس بمقدور بيروتو الإقامة لدى الآنسة غامار قبل وفاة شابلو.

(١) يعتقد ن. موزي أن الأب نيكولا سيمون الذي كان مالكاً لمدرسة بسالت، وله مكانته بين إكليروس مدينة تور قد استخدم كنموذج لشابلو.

لكنه لم يلاحظ أي شيء آخر. فبداية الرغبة في سكن بيت كهذا مماثل لبداية هوى حقيقي لشاب تتجلى فيه بارقة إعجاب بالمرأة التي سيشغف بها فيما بعد حتى النهاية.

كانت هذه الشقة التي يوصل إليها بسلم حجري واقعة في مبنى موجه نحو الجنوب يشغل الأب تروبير فيه الطابق الأرضي والآنسة غامار الطابق الأول من الجناح الرئيس الواقع على الشارع، وعندما شغل الأب شابلو شقته كانت الغرف عارية والسقوف مسودة من الدخان، وأطر المدافئ من حجر سيء النحت لم يدهن أبداً في السابق، ولم يكن لدى الكاهن المسكين في البدء من الأثاث إلا سرير ومنضدة وبضع كراسي، وبعض كتب يمتلكها، وبدت الشقة كامرأة جميلة في أسمال بالية. لكن بعد سنتين أوصت إحدى العجائز في ميراثها بألفي فرنك للأب شابلو، فاستخدم هذا المبلغ في شراء مكتبة من خشب السنديان واردة من مخلفات أثاث قصر فككته العصابة السوداء[1]، وتميزت تلك المكتبة بنقوشها الجديرة

(١) أطلق اسم «العصابة السوداء» في عهد الملكية الثانية على مجموعة من الرأسماليين الذين يشترون البيوت الكبيرة والقصور القديمة لتخريبها والاستفادة من بيع أثاثها وموادها الأولية من رصاص وحديد وغيرهما. وهذه العصابات السوداء العديدة التي كانت مسؤولة عن خراب عدة أوابد: سان جرمن أوكسروا، ودير كلوني، وقصر شانتلو، وقصر ريشيلو، وقصر موغورونسي، وميدون، وبليرانكور، إلخ. ويبدو أن فيكتور هوغو هو أول من استنكر علناً هذه الهمجية في تخريب الآثار الفنية في قصيدة بعنوان «العصابة السوداء» في العام ١٨٢٣. وبعد ثورة تموز أثار هو أيضاً هذه القضية في مقال نشره في مجلة العالمين (الجزء الأول، العام ١٨٣٣) بعنوان «حرب على المخربين»، وتتناول مونتالمبر الموضوع نفسه في المجلة ذاتها العام ١٨٣٣ فأثنى على بادرة فيكتور هوغو وقدّم لائحة مثيرة بأسماء الأماكن المهدمة أو قيد الهدم، وهذا مادفع ملكيةتموز إلى اتخاذ الإجراءات لحماية الأوابد التاريخية حيث لعب مريمه دوراً هاماً في هذا السبيل. في «الملهاة الإنسانية» تطرق بلزاك إلى موضوع «العصابة السوداء» في روايات: مودست مينيون، والسيدة فيرمياني (تحت اسم حملة المطرقة) وفي كاهن القرية، وفي الفلاحين، والنسيب بونس. وقد استخدم هذا التعبير في الحملة الأخيرة من المحروم بطريقة يربط فيها بين مفهوم الكلمة الحديث، ومفهومها القديم (عصابة مسلحة تعيش من النهب) فقال: «إن عصابةزيا قد تفرقت لكنها لم تنحل، وهي موجودة الآن، كما في القرن الخامس عشر، وتضم مجموعة من الرجال تشكل قسماً من العصابة السوداء» وهناك رواية للمؤلف ج. ز. دافيد (١٨٣٧) غير موجودة في مكتبات باريس، لكن نسخة من طبعة بلجيكية موجودة في مكتبة الكونغرس في واشنطن تحمل هذا الاسم، كما أن هناك قصة حول هذا الموضوع من تأليف ليون غوزلان نشرت في العام ١٨٣١ في مجلة باريس..

بإعجاب الفنانين، وسر الكاهن لامتلاك هذه القطعة النفيسة، لا لرخص ثمنها فقط، وإنما لتلائمها الكامل مع المكان المخصص لها في الرواق بعد أن سمحت له مدخراته بترميم هذا المكان الذي كان مايزال هزيلاً ومهجوراً. فجُلِيَت الأرضية فيه بعناية، وكُلِّس السقف، ودهنت أخشاب التغطية بحيث تظهر ألوان السنديان وعقده، واستبدلت مدفأة رخامية جديدة بالأخرى القديمة. وكان الكاهن على درجة رفيعة من الذوق دفعته إلى البحث عن كرسيين عريضين قديمين من خشب الجوز المزخرف، وجدهما مع منضدة طويلة من الإبنوس وقطعتي أثاث من صنع بول[1] مما أتم إعطاء هذا الرواق طابعاً مليئاً بالطرافة والتفرد. كما أن سخاء بعض الورعين وأعطيات بعض التقيات التائبات على قلتها سمحت بإملاء الرفوف الفارغة في المكتبة بالكتب خلال سنتين، أخيراً فإن أحد أعمام شابلو وهو أوراتوري شيخ[2] أوصى له بمجموعة مجلدة كاملة من مؤلفات آباء الكنيسةوعدة مؤلفات ثمينة أخرى تهم رجل الدين؛ وكانت دهشةبيروتو قد ازدادت أكثر فأكثر لهذه التحولات المتتابعة في هذا الرواق العاري سابقاً وكبر تدريجياً جشعه اللاإرادي وتمنى أن يمتلك هذا المكتب المتناسب جيداً مع هيبة الطبائع الكهنوتية وتعاظم هذا الهوى يوماً بعد يوم، خاصةوهو يقضي نهارات كاملة في العمل ضمن هذا المكان المنعزل مما زاده تقديراً للصمت السائد فيه ولهدوئه بعد أن أعجب سابقاً بحسن توزيعه، وخلال السنوات التالية تمكن الأب شابلو أن يحول غرفة صغيرة في شقته إلى مصلى سعدت صديقاته الورعات في تجميله وتزيينه، كما أن إحدى السيدات قدمت للكاهن فرشاً كاملاً لغرفة نومه طرزته بنفسها أمام عيني ذلك الرجل المحبوب دون أن تُعرَف الجهة المعد لها، وبذلك غدت غرفة النوم كالرواق محط إعجاب

---

(١) بول (١٦٤٢-١٧٣٢): ابنيستي شهير تتميز قطع الأثاث التي صنعها بزخارفها من الجلد وتطعيمها بالصدف والمعرقات والزخارف النحاسية.

(٢) الأوراتورية: رهبنة أنشأها في رومة فيليب فيري في العام ١٥٦٤، وأسس فروعاً لها في فرنسة الكردينال دي برول (١٦١١) لمقاومة البروتستنتينية والتيارات الاصلاحية اهتمت ببلاغة رهبانها وثقافتهم وشهرة المؤسسات التعليمية التي يديرونها.

وذهول الوكيل. أخيرا وقبل ثلاث سنوات من وفاة الأب شابلو أتم رخاء شقته بتزيين صالته، وبهر الأثاث بيروتو رغم بساطة مخامل أو ترخت الحمراء؛ ومنذ اليوم الذي رأي فيه الوكيل صديق الكاهن الستائر المعدة من حرير الصين المعرق الأحمر، وأثاث الأكاجو، وسجادة الأوبيسون التي تزين هذه الصالة الواسعة المدهونة مجدداً، غدت شقة شابلو بالنسبة إليه هوساً أحادياً خفياً؛ فبيروتو تصور السعادة القصوى في الإقامة هناك. والنوم في السرير العريض ذي الستائر الحريرية، والتمتع بكل مظاهر الأبهة المحيطةبشابلو، ولم يعد يرى غير ذلك. فكل مايولد متاع الدنيا من رغبة وطموح في نفوس الرجال تركز لدى الأب بيروتو في ذلك الإحساس السري والعميق الذي كان يشتهي فيه بيتاً مؤثثاً كالذي يرتع فيه الأب شابلو، وعندما كان المرض ينتاب صديقه، كان يأتي بالتأكيد لعيادته مدفوعاً بمودة صادقة، لكنه عند معرفته بتوعك الكاهن، أو عند ملازمته له، كانت تنتابه في صميم روحه آلاف الأفكار التي تختصر دائماً بالصيغة الأكثر بساطة وهي: «لو يموت شابلو، فسأتمكن من حيازة سكنه» لكن بيروتو ذا القلب الطيب، والأفكار الضيقة، والذكاء المحدود، لم يكن ليتمادى إلى تصور الوسائل التي تدفع صديقه إلى أن يوصي له بمكتبته وأثاثه. لم يكن من الصعب على الأب شابلو الأناني واليقظ واللطيف أن يخمن هوى صديقه فهذا أمر سهل، إنما ماهو أقل سهولة لدى الكاهن هو غفران ذلك. لكن الوكيل الذي استمرت مودته لصديقه، لم ينقطع عن التنزه معه كل يوم في ذات الممر المشجر[1] من مدينة تور دون أن يلومه لحظة على الوقت الطويل الذي يخصصه منذ عشرين سنة لهذه النزهة، فبيروتو الذي كان يعتبر شهواته اللاإرادية خطايا، كان مستعداً في سبيل التكفير عنها للقيام بأكبر التضحيات لخدمة الأب شابلو. وسدّد هذا دينه نحو هذه الأخوة، المعبر عن

(١) الممرات المشجرة: مكان تنزه في مدينة تور يضم جادتي بيرانجه وهرتلو اللتين غرستا بالأشجار في عهد هنري الرابع، أوائل القرن السابع عشر ومُنع مرور العربات فيها.

إخلاصهابكل سذاجة، عندما قال للوكيل، وهو يقرأ له صحيفة «الكوتيديين»[1]، قبل موته بعدة أيام: «هذه المرة، ستحصل على شقتي، إنني أشعر أن نهايتي قد قربت». والواقع أن الأب شابلو وهب في وصيته مكتبته وأثاثه لبيروتو. وخفف امتلاك هذه الأشياء المشتهاة منذ زمن طويل، والأمل بالحلول نزيلاً لدى الآنسة غامار الألم الذي أحس به بيروتو لفقد صديقه الكاهن. ربما لم يكن مستعداً ليرده إلى الحياة، لكنه بكاه بصدق؛ وكان خلال بضعة أيام كغارغانتوا، عند وفاة امرأته وهي تلد له بنتاغرويل، لا يعلم هل سيسر لولادة طفله أم يحزن لوفاة زوجته الطيبة بادبك[2]، وصل في تصرفه، فأبدى السرور في جنازة قرينته، وعبر عن الحزن أمام مهد ولده. قضى الأب بيروتو الأيام الأولى من حداده في التحقق من المؤلفات التي تحتويها مكتبته وفي استخدام أثاثه وفحصه، وهو يقول بلهجة لا يمكن للأسف وضع علامات لحنها: «يا لشابلو المسكين!». وأخيراً شغله فرحه وألمه مادام لم يحسّ بأي بادرة لمنح مركز الكاهن القانوني الذي أمل المرحوم شابلو برؤية بيروتو خليفة له فيه إلى أي شخص آخر. كما أن الآنسة غامار ارتضت بسرور أن تأخذ الوكيل نزيلاً لديها؛ واستمتع هذا منذ ذلك الحين بجميع مباهج الحياة المادية التي تبجح بها الكاهن المتوفي: ميزات لا تحصى، فمن كان يسمع المرحوم الأب شابلو يوقن أن ما من أحد من جميع الكهنة الذين سكنوا مدينة تور - دون استثناء البطريرك - يحظى بعناية بمثل هذه الدقة والرهافة التي تبذلها الآنسة غامار لنزيليها. كانت الكلمات الأولى التي ينطق بها الكاهن لصديقه، وهما يتنزهان في الممر المشجر، تشير دائماً إلى العشاء الشهي الذي تناوله مساء أمس، وكان نادراً خلال التنزهات الأسبوعية السبعة، ألا يردد على الأقل أربع عشرة مرة: «من المؤكد أن هذه الفتاة الرائعة قد منحت نعمة العنايةبرجال الكهنوت».

---

(١) صحيفة «الكوتيديين Quotidienne» هي صحيفة الحزب الملكي المتطرف في عهد الملكة الثانية.

(٢) كان بلزاك يستوحي كثيراً من مواقف رابله الساخرة - انظر حول هذا الموضوع «بلزاك ورابله» من تأليف موريس لكويه - باريس ١٩٥٦.

كان الأب شابلو يقول لبيروتو: «قدّر معي إذاً أنه خلال اثنتي عشر سنة متعاقبة لم ينقصني شيء من البياضات، أو الكتونات، أو الدرعيات، أو الياقات[1]؛ إنني أجد دائماً كل شيء في مكانه، وبعدد كاف، تفوح منه رائحة السوسن. أثاثي دائماً نظيف، يمسح بعناية فائقة، ومنذمدة طويلة لا أعرف الغبار، هل رأيت ذرة منه في شقتي؟ أبداً! ثم إن حطب التدفئة مختار بعناية، بل إن أتفه الأشياء تتميز بجودة فائقة؛ وباختصار يبدو أن عين الآنسة غامار لاتغفل عن شقتي، ولا أذكر أبداً أنني قرعت الجرس مرتين، خلال عشر سنوات، لأطلب أي شيء. هذه هي الرفاهية في الحياة! أن تجد كل شيء في متناول يدك، حتى الخف الذي يريح قدميك، وتحظى دائماً بمائدة شهية، وركن دافئ. حتى عندما تعطل منفاخ النار، لم أشكُ، إذ أن الآنسة قدمت لي في اليوم التالي منفاخاً جميلاً جداً، وكذلك الملقط الذي رأيتني أكوم فيه الجمرات في المدفأة.»

كان جواب بيروتو الوحيد أن ردد عبارة: «تفوح منه رائحة السوسن» فقد كان فوح عطر السوسن ينعش دائماً؛ وكلمات الكاهن تعبر عن سعادة خارقة بالنسبة للوكيل المسكين الذي كانت كتوناته ودرعياته تدير الرأس خجلاً من منظرها المدعوك وعدم ترتيبها، بينما كان ينسى غالباً إعداد وجبة عشائه. وهكذا لم يكن يفوته عندما يحظى بلقاء الآنسة غامار، أو يلحظ وجودها في كاتدرائية سان غاتيان، عند تلاوته القداس، من أن يوجه لها نظرة باسمة، مرحبة، كالنظرة التي كان يمكن أن تلقيها القديسة تريزا إلى السماء.

بالرغم من أن الرفاهية التي يرغب فيها كل مخلوق، والتي حلم بها غالباً قد فاتته. ولما كان من الصعب على أي انسان أن يحيا دون فكرة راسخة تتملكه، فقد أحلَّ الأب بيروتو محل الرغبتين المشبعتين لديه أمنية قونتته. فلقب الكاهن القانوني

---

(١) الكتونة: قميص يلبسه الكاهن تحت البذلة وقت خدمة القداس، والدرعية: ثوب قصير مثنى ذو أكمام عريضة هو بمثابة بزة الكاهن وقت الخدمة. والياقة: أو البطرشين قطعةقماش تتدلى من عنق الكاهن وهي خاصة بخدمة القداس.

غدا بالنسبة إليه كمنح وزير من عامة الشعب عضوية مجلس الأعيان؛ وهكذا فاحتمال تسميته، والآمال التي أوقظت في نفسه لدى السيدة دي ليستومير أدارت رأسه حتى أنه لم ينتبه إلى أنه نسي مظلته إلا عند وصوله إلى منزله، بل ربما لم يتذكر ذلك لولا انهمار المطر مدراراً آنذاك، لشدة استغراقه في متعة التفكير بالثرثرة المتعلقة بترقيته، وما ردده عن ذلك سمار السيدة دي ليستومير، السيدة العجوز التي اعتاد أن يمضي لديها السهرة كل يوم أربعاء.

رن الوكيل الجرس بشدة كأنه يريد أن ينذر الخادمة بضرورة السرعة في فتح الباب، ثم ركن إلى زاوية ليتقي المطر ما أمكنه، لكن الماء الذي يسيل من السطح بلل تماماً طرفي حذائه، والريح التي تهب على فترات دفعت نحوه بعض الرذاذ كرشات دفاقة. وبعد أن قدر الزمن الضروري للخروج من المطبخ والمجيء لشد الحبل المعلق بالباب، قرع مجدداً بحيث أحدث رنيناً يعبر عن نفاذصبره.

قال في نفسه عندما لم يسمع حركة في الداخل: «لايمكن عدم وجود أحد في المنزل»؛ وضغط بشدة متواصلة على زر الجرس بحيث انتشر رنينه الحاد في أرجاء المنزل، ورددت أصداءه جدران الكاتدرائية حتى ليستحيل عدم الاستيقاظ على هذه الجلبة المزعجة، وهكذا، وبعد بضع لحظات، غمره بعض السرور المختلط بالحنق عندسماعه وقع قبقاب الخادمة على ممر الباحة المحصى. غير أن انزعاج المنقرس لم ينته سريعاً كما ظن، فبدلاً من أن يُسحب الحبل ببساطة كانت ماريان مضطرة للحضور إلى المدخل وفتح البوابة المقفلة بالمفتاح ورفع رتاجها.

قال للخادمة ماريان: «كيف تتركينني أضطر لقرع الجرس ثلاث مرات في مثل هذا الطقس؟

- لكنك رأيت جيداً، ياسيدي، أن الباب الخارجي مغلق بالمفتاح، والجميع في المنزل نيام منذ مدة طويلة، فثلاثة أرباع الساعة العاشرة قد رنت، وقد ظنت الآنسة أنك لم تخرج هذا المساء.

- لكنك رأيتني أنتِ عند خروجي! كما أن الآنسة تعلم جيداً أنني أقضي السهرة كل يوم أربعاء لدى السيدة دي ليستومير.

ردت ماريان وهي تقفل الباب مجددا : تأكد ياسيدي أنني فعلت ماأمرتني الآنسة بفعله».

وجهت هذه الكلمات للأب بيروتو ضربة كانت أكثر تأثيراً بإيلامها عن غبطة حلم اليقظةالذي كان يغمره في طريقه؛ فلزم الصمت وتبع ماريان إلى المطبخ ليأخذ شمعدانه لكنه لاحظ أن ماريان قادته نحو سلم شقته بدلاً من أن تسير معه نحو المطبخ، وعلى منضدة صغيرة موجودة في ردهة ضيقة عند عتبة السلم الذي وضع المرحوم شابلو حاجزاً مزججاً يفصلها عن الصالة الحمراء، وجد شمعدانه، فأخرسته المفاجأة، ودخل سريعاً إلى غرفته ولما لم يجد النار موقدة في المدفأة نادى ماريان التي لم يكن قد تسنى لها الوقت الكافي للابتعاد وسألها : «لماذا لم تشعلي النار في مدفأتي؟

أجابت : «عذراً، يا سيدي الراهب، يبدو أنها قد خمدت».

نظر بيروتو مجدداً إلى الموقد، ولاحظ أن الرماد على الوضع الذي تركه فيه منذ الصباح؛ فقال : «أشعلي لي ناراً فإنني بحاجة لتجفيف قدمي المبللتين».

أذعنت ماريان بامتعاض شخص يريد أن يعود سريعاً إلى فراشه، بينما كان الراهب يفتش بنفسه عن خفه الذي لم يجده على موطئ سريره كما اعتاد سابقاً؛ ولاحظ من ثوب ماريان وبعض مظاهر أخرى أنها لم تكن مستغرقة في النوم كما قالت له عند فتح الباب؛ وتذكر آنذاك أنه منذ حوالي خمسة عشر يوماً قد حُرم من هذه الخدمات الصغيرة التي كانت تقدم له طيلة ثمانية عشر شهراً وتجعل عيشه رضياً مستساغاً. والحال كما تدفع طبيعةالعقول الضيقة أصحابهاإلى تخمين الدقائق، انصرف فجأة إلى أفكار كثيرة جداً حول هذه الأحداث الأربعة غير الملاحظة من قبل أي شخص آخر، لكنها تشكل بالنسبة إليه أربع كوارث. إذ أنها تتعلق بداهة بضياع سعادته كلياً، متجلياً في نسيان وضع خفه في موضعه، وكذب ماريان المتعلق بإشعالها النار، والنقل المستهجن لشمعدانه من المطبخ إلى منضدة ردهة السلم، ثم التأخر المتعمد في فتح باب المدخل وهوواقف على عتبته تحت المطر.

بعد أن توهج اللهب في الموقد، وأشعل مصباح الليل، وبعد أن تركته ماريان دون أن تسأله كعادتها سابقاً: «هل يحتاج السيد لشيء آخر؟». غاص الأب بيروتو بهدوء في المقعد الوثير المنجد العائد للمرحوم صديقه، لكن الحركة التي تهالك بهاعليه نمت عما يخالجه من كآبة؛ فقد انتاب الرجل إحساس مسبق بمصيبة فادحة قادمة، ودارت عيناه بالتتابع على الساعة الجدارية الجميلة، وعلى خزانةالملابس، والكراسي، والستائر، والسجاجيد، وقوائم السرير الخشبية المربعة، وجرن الماء المقدس، والصليب، ولوحة العذراء للفنان فالنتين[1]، ولوحة للسيد المسيح من رسم لبران[2]، أخيراً على جميع مافي هذه الغرفة من أثاث وتوابعه؛ وبدا على سحنته تعبير آلام موقف الوداع الأكثر رقة لعاشق مع خليلته الأولى، أو لعجوز مع آخر الأشجار التي غرستها يداه. وأدرك الوكيل، متأخراً قليلاً، الحقيقة، فإشارات مضايقة خرساء مورست عليه منذ نحو ثلاثة أشهر من قبل الآنسة غامار، وكان بإمكانه لو أنه أكثر فطنة أن يخمن مضامينهاالسيئة في وقت أبكر من ذلك بكثير. أليس للعوانس جميعاً موهبة مافي إبراز الأفعال والكلمات التي توحي بهاالكراهية. إنهن يخمشن على طريقة القطط، ثم لايكتفين بإحداث الجروح بل يعربن عن متعتهن بإحداث، ذلك وإظهاره لضحيتهن، وبينما لايفسح رجل المجتمع المجال لأن يلدغ من جحر مرتين، فإن بيروتو الساذج يحتاج إلى عدة ضربات مخلب في وجهه قبل أن يدرك النية الخبيثة الدافعة إلى جرحه.

وبتلك الفطنة السؤول المعتمدة لدى الكهنة، وقد اعتادوا على توجيه الضمائر، وتنقيب الترهات في عمق كرسي الاعتراف، سرعان مابدأ الأب بيروتو؛ وكأن الأمر يتعلق بمجادلة دينية، في وضع الفرضية التالية: «إذا سلمنا بأن الآنسة غامار لم تفطن إلى السهرة لدى السيدة دي ليستومير، وأن ماريان نسيت إيقاد النار

---

(١) فالنتين: (١٦٠١-١٦٣٤) رسام فرنسي من القرن السابع عشر، وهو يذكر في «الملهاة الإنسانية» في هذه القصة فقط.

(٢) لبران، شارل (١٦١٩-١٦٩٠) رسام فرنسي، كان له تأثير كبير على الاتجاهات الفنية في عصر لويس الرابع عشر، وترأس الأعمال الزخرفية في قصر فرساي.

في مدفأتي، واعتقدت أنني عدت إلى المنزل بعد أن غادرته هذا الصباح، إنما أنا وشمعداني !!! من المستحيل على الآنسة غامار، عندما ترى هذا الشمعدان قرب صالتها أن تفترض أنني نائم. بالأحرى يجب التسليم أن الآنسة غامار أرادت أن تتركني على الباب تحت المطر وبالعمل على نقل شمعداني إلى قرب غرفتي بيّنت عن نيتها في أن تُعلمني. . . » «ماذا!» قال ذلك بصوت عال مسوقاً بخطورة الظروف، ونهض فخلع ثيابه المبللة، وارتدى مبذله، واعتمر بطاقية الليل؛ وذهب من السرير إلى المدفأة وهو يومئ بإشارات ويطلق بنبرات مختلفة العبارات التالية التي كان ينهيها كلها بصوت نشاز كأنه يسجل نقاط تعجب واستنكار: «يا للشيطان!، ماذا فعلت لها؟ ولماذا تحقد عليّ؟ ماريان لاتنسى إيقاد النار في مدفأتي! فالآنسة هي التي دفعتها إلى عدم إيقادها! يجب أن أكون بعقل طفل إن لم ألاحظ من النبرة والتصرفات أنها غاضبة مني، وأن وجودي للأسف يكدرها. ومثل هذا لم يحدث أبداً لشابلو ! سيتعذر عليّ أن أحيا وسط هذه المكدرات التي. . . في مثل سني. . . ».

ونام على أمل أن يستوضح في صباح اليوم التالي عن سبب هذه الكراهية التي تقوض إلى الأبد هذه السعادة التي رتع فيها خلال سنتين بعد أن تمناها زمناً طويلاً، وللأسف فإن البواعث الخفية للعاطفة التي تكنها الآنسة غامار له ستبقى مجهولة لديه إلى الأبد، ليس لصعوبة تخمينها، إنما لأن الرجل المسكين كانت تنقصه المبادرة المباشرة التي تعرف بموجبها النفوس الكبيرة والنصابون كيف يتصرفون ويحكمون على أنفسهم. فالرجل العبقري والمتآمر وحدهما يعرفان أن يقولا لنفسيهما «إنني على خطأ؛ فالمصلحة والموهبة هما النصيحان المنصفان الواعيان». والحال أن الأب بيروتو بطيبته التي تصل إلى حد الحماقة، وثقافته المموهة بحكم العمل، وعدم خبرته بالعالم وطبائعه، وعيشه بين إقامة القداس وكرسي الاعتراف، وانشغاله الدائم في تقرير المشكلات الضميرية الأكثر خفة بصفته معرفاً لطلاب المدارس الداخلية في المدينة، وبعض النفوس البريئة التي تقدره. الأب بيروتو هذا يمكن أن يعتبر طفلاً كبيراً، فالقسم الأعظم من الممارسات الاجتماعية غريب عنه كلياً؛ إنما الأنانية الطبيعية لدى جميع الخلائق البشرية

وحدها، مدعمة بالأنانية الخاصة بالكاهن، وبتلك الناتجة عن الحياة الضيقة الممارسة في المقاطعات، هي التي نمت لديه تدريجياً، ودون أن يدري بها. وإذا أمكن لأحدهم أن يجد بعض الفائدة إن نقب في نفس الوكيل ليبين له أن في تفاصيل كيانه المتناهية في الصغر، وفي الواجبات الطفيفة لحياته الخاصة، ينقص بشكل رئيس بعض هذا الوفاء الذي يعتقد أنه يعلمه؛ فإنه بذلك سيعاقب نفسه، وسيتألم من نيته الطيبة. لكن أولئك الذين نسيء إليهم، حتى دون علمنا، لايقيمون إلا قليلاً من الاعتبار لبراءتنا فهم يريدون الانتقام ويسعون إليه. إذاً فبيروتو، على ضعفه، يستجيب لنتائج هذه العدالة التوزيعية[1] الكبيرة، التي تنطلق دائماً مكلفة العالم بتنفيذ أحكامها المسماة من قبل بعض البلهاء **مآسي الحياة**.

كان هناك هذا الفرق بين المرحوم الأب شابلو والوكيل في أن الأول أناني بارع، مرهف العقل؛ بينما الثاني أناني صريح أخرق. وعندما وفد الأب شابلو نزيلاً على هذه الآنسة فهم تماماً طبع مضيفته، وأرشدته كرسي الاعتراف إلى إدراك كل ماتضعه مأساة الوجود خارج المجتمع من مرارة في قلب عانس؛ فنظم بتعقل تصرفه مع الآنسة غامار، والمضيفة آنذاك لم تتعد الثامنة والثلاثين من العمر، وماتزال محتفظة ببعض طموحات تتحول لدى هؤلاء الأشخاص الرصينين فيما بعد، إلى تقدير كبير لأنفسهم. وأدرك الكاهن القانوني أن من واجبه، لأجل أن يعيش في وئام مع الآنسة غامار، أن يوليها دائماً ذات الانتباه وذات العناية، وأن يكون أكثر عصمة من البابا. وللحصول على هذه النتيجة لم يدع مجالاً فيما بينهما إلا لعلاقات ترتكز على نقاط اتصال ينظمها التهذيب بدقة، وعلى ما تتطلبه الضرورة من أشخاص يعيشون تحت سقف واحد؛ وهكذا فبالرغم من أنه هو والأب تروبير يتناولان ثلاث وجبات بانتظام يومياً، فإنه قد استنكف عن وجبةالإفطار المشتركة مفسحاً المجال للآنسةغامار لترسل له إلى غرفته صباحاً فنجان قهوة مع القشدة فقط، كما أنه جنّبها إزعاجات وجبة الليل[2] حيث يأخذ مساء

---

(١) العدالة التوزيعية Justice Distributive تلك التي تعطي لكل واحد النصيب الذي يستحقه وتقابلها العدالة العوضية Justice Commutative: وهي تقوم على تكافؤ الالتزامات مع الأعباء.

(٢) وجبة الليل Souper: هي وجبة يتم تناولها بعد الساعة التاسعة ليلاً، وقد تقتصر أحياناً على بعض مأكولات خفيفة.

فنجاناً من الشاي في المنزل الذي يقضي فيه سهرته، وهكذا كان نادراً مايرى مضيفته إلا في فترة العشاء[1]، حيث يحضر دائماً قبل الموعد المحدد ببعض الوقت، وخلال هذا النوع من الزيارة المتأدبة، كان يوجه لها دائماً، وخلال الاثنتي عشر سنةالتي قضاها تحت سقف منزلها الأسئلة نفسها، ويحصل منها على ذات الأجوبة: راحتها في النوم الليلة الفائتة، إفطارها، الأحداث المنزلية الصغيرة التي شغلتها؛ وملامح وجهها؛ صحتها ووسائل عنايتها بها، تغيرات الطقس والمناخ، أوقات الصلوات، أحداث القداس، وأخيراً الوضع الصحي لهذا الكاهن أو ذاك: هذه هي مواضيع المحادثة الدورية. وخلال العشاء، يلجأ دائماً إلى إطراءات غير مباشرة، بادئاً دون انقطاع من جودةالسمك إلى حسن الذوق في اختيار الأفاويه، أو طيب نكهة الصلصة؛ ومنتهياً بمزايا الآنسة غامار ومهارتها كربة بيت؛ وكان واثقاً أنه يدغدغ كل زهو وتفاخر العانس وهو يشيد بفن إعدادها وصنعها لمربياتها، ومخللاتها، ومعجناتها، ومعلباتها، وغير ذلك من ابتكارات المشهيات. أخيراً لم يغادر الكاهن الداهية صالة مضيفته يوماً دون أن يشيد بقهوتها وبأنه لم يذق في أي بيت من بيوت تور أطيب منها. وبفضل هذه المراعاة التامة لطبع الآنسةغامار وهذه الخبرة في المعاملة الممارسة طيلة اثني عشر عاماً، لم يحدث أبداً أي جدل بين الكاهن ومضيفته حول أية نقطةنظام داخلي؛ فالأب شابلو تعرف أولاً على الزوايا والخشونات في تلك العانس وجموحها، وضبط فعالية التماسات التي لايمكن تجنبها بين شخصيتيهما بحيث يمكن أن يحصل منها على جميع التنازلات الضرورية لسعادة وطمأنينة حياته. وهكذا كانت الآنسة غامار تقول إن الأب شابلو رجل لطيف جداً، سهل المعاشرة إلى أبعد حد، وذو ذكاء فائق. بينما لم تقل الورعة شيئاً عن الأب تروبير رغم أنه دخل في حياتها كلياً كتابع في مدار أحد الكواكب. فتروبير كان بالنسبة إليهاأحد المخلوقات المتوسطة بين أفراد الجنس البشري وأفراد الجنس الكلبي؛ فهومصنف في قلبها قبل الأصدقاء، إنما بعدكلبها الكارلان البهير الذي تبدي له كل حنو، وهي تسيطر عليه كلياً وقد غدا تشابك مصالحهما كبيراً إلى درجة

---

(١) وجبة العشاء، هي الوجبة الرئيسة Diner ويتم تناولها بعد انتهاء يوم العمل بين الخامسة والسابعة مساء، وهذا مابقيت العادة عليه في أمريكة وأنكلترا.

ظن معها كثير من عشراء الآنسة غامار أن الأب تروبير يشرف على إدارة أملاك العانس، ويحافظ عليها بأناة مستمرة، ويوجه العانس بقدر ماتبدو استجابتها له، دون أن تلحظ أقل رغبة لديه في التأثير عليها.

عندما توفي الأب شابلو، فكرت العانس، الراغبة في اتخاذ نزيل ذي طبائع رضية، بشكل طبيعي بالوكيل بيروتو؛ ولم تكن وصية الكاهن القانوني قدعرفت، وأضمرت الآنسةغامار أن تعطي شقة المرحوم لنزيلها الطيب الأب تروبير غير المرتاح في نظرها لسكنه في الشقة الأرضية؛ وعندما حضر الأب تروبير ليبحث معها الشروط العادية لإقامته، وجدته متعلقاً بتلك الشقة التي يكنّ لها شوقاً عارماً أمكنه أخيراً التصريح به؛ بحيث أنها لم تجسر أن تحدثه عن التبادل، وتخلت عن الميل أمام متطلبات المصلحة، وعوضت نزيلها القديم بأن استبدلت بالبورسلين الأبيض المسمى آجر شاتو-رينو المشكل لأرضية شقته بلاط هنغارية الخشبي المتصالب، وأعادت بناء المدفأة التي لم تكن تسحب الدخان جيداً.

رافق الأب بيروتو صديقه شابلو اثني عشر عاماً دون أن يفكر يوماً بمعرفةوسائل محافظته على علاقاته الودية مع الآنسة غامار. وبمجيئه للسكن لدى تلك الفتاة القديسة، وجد نفسه في وضع عاشق بدأت تزهر أمانيه، ولم يكن بالطبع فاقداً لكل فطنة إنما بهرت الغبطة عينيه فغشيتا عن الحكم على الآنسة غامار، وعن التفكير بمستوى علاقاته اليوميةمعها، إذ نظر إليها عن بعد، وعبر موشور المتع المادية التي حكم الوكيل الأسقفي بتذوقها لديها؛ وبدت له مخلوقة مكملة، مسيحيةكاملة، محسنة رئيسة، السيدة وفق الإنجيل، العذراء الحكيمة، المزينة بالفضائل المتواضعة والبسيطة التي تنشر في الحياة عطراً سماوياً. وهكذا فبكل حماسةالرجل الذي بلغ مأرباً تمناه طويلاً، وبسذاجة طفل، وطيش كهل غبي دون تجربة اجتماعية، دخل في حياة الآنسة غامار كذبابة وقعت في شبكة رتيلاء. ووجد نفسه في يوم مجيئه الأول للعشاء لدى العانس والنوم في منزلها، متسمراً في صالونها مدفوعاً برغبة التعرف عليها، وأيضاً بذلك الاضطراب المبهم الذي يدفع الأشخاص الخجولين للاعتقاد بأن من قلة التهذيب قطع محادثة من أجل المغادرة،

وبقي طيلة السهرة، وكانت عانس أخرى تسمى الآنسة سلمون دي فيلنوا، صديقة للأب بيروتو قد حضرت لرؤيته، ونسبت الآنسة غامار اختتام السهرة بلعبة بوسطن لديها، ووجد الوكيل وهو يغادر الصالون للنوم أنه قضى سهرة ممتعة، ولم يكن قد تعرف إلا بشكل سطحي على الآنسة غامار والأب تروبير، فلم يلاحظ إلا الشيء الظاهر من طباعهما. وقلائل هم الأشخاص الذين تتعرى عيوبهم منذ البدء، وبصورة عامة يجرب كل امرئ أن يحيط نفسه بلحاء جذاب، وصاغ الأب بيروتو لنفسه مشروعاً ظريفاً في تخصيص الآنسة غامار بسهراته بدلاً من أن يذهب لقضائها خارج المنزل، وكانت قد تولدت لدى المضيفة منذعدة سنوات، رغبة كبرت يوماً بعد يوم، هذه الرغبة التي تنمو لدى الشيوخ وحتى النساء الجميلات، وقد غدت لديها هوساً مماثلاً لهوس بيروتو بشقة صديقه شابلو، ودفعتها إليها أحاسيس الغرور والأنانية، والغيرة والتفاخر الموجودة مسبقاً لدى أشخاص المجتمع وهي قصة جميع الأزمنة: يكفي توسيع الحلقة الضيقة التي تتحرك ضمنها هذه الشخصيات قليلاً لايجاد العامل المسبب للأحداث الحاصلة في المستويات الأكثر رفعة في المجتمع؛ فالآنسة غامار كانت تقضي على التناوب أمسياتها في ستة أو ثمانية بيوت مختلفة، وسواء أخالجها الأسف لاضطرارها إلى الذهاب لرؤية الناس، وظنت أن من حقها في هذا العمر أن ترتدع عن ذلك؛ أو أن أنانيتها استثيرت لعدم وجود شلة خاصةبها؛ أو أن تفاخرها اشتهى التملقات والميزات التي ترتع بها صديقاتها؛ فقد تركز كل طموحها في أن تجعل من صالونها نقطة تجمع يتوجه إليها كل مساء عدد من الأشخاص بكل سرور. وعندما قضى الأب بيروتو وصديقته الآنسة سلمون بضع أمسيات لديها برفقة الأب المخلص الصبور تروبير، أعلنت ذات مساء عند خروجها من سان غاتيان لصديقاتها الطيبات اللواتي كانت تعتبر تابعة لهن أن من يريد رؤيتها يمكنه أن يحضر مرة في الأسبوع إلى منزلها، حيث يتجمع عدد كاف من الأصدقاء لإجراء لعبة بوسطن، إذ يجب ألا تترك الأب بيروتو نزيلها الجديد وحيداً؛ وأن الآنسة سلمون لاتفوتها سهرة واحدة لديها، وهي تنتمي إلى أصدقائها، وأن . . . وأن . . . الخ . . كانت كلماتها متفاخرة بتواضع،

ومتكلفة اللطف، فالآنسةسلمون دي فيلنوا تنتمي إلى الطبقة الأكثر ارستقراطية في تور، وبالرغم من أنها كانت تأتي فقط لصداقتها مع الوكيل الأسقفي فإن الآنسة غامار ازدهت لرؤيتها في صالونها، ورأت نفسها بفضل الأب بيروتو في الطريق لتحقيق بغيتها المرجوة في تشكيل حلقة يمكن أن تغدو بشهرة ومتعة حلقة السيدة دي ليستومير، والآنسةمرلين دي لابلوتيير وغيرهما من الورعات اللواتي يستقبلن المجتمع المتدين في تور. لكن للأسف فإن الأب بيروتو سبب إجهاض مشروع الآنسةغامار المرجو. والحال لو أن جميع أولئك الذين وفقوا في الاستمتاع طويلاً بسعادة متمناة، أدركوا الغبطة التي نعم بها الوكيل وهو يرقد في سرير شابلو، لأمكنهم أيضاً أن يأخذوا فكرة بسيطة عما أحست به الآنسة غامار من كمد لفشل خطتها الأثيرة. فبعد ستةأشهر من سعادة نعم بها بيروتو بأناة، تخلى عن السهر في المنزل، وقاد معه الآنسة سلمون؛ ورغم الجهودالحثيثة لم تتمكن الآنسة غامار الطموح من أن تجتذب أكثر من خمسة إلى ستة أشخاص كانت ملازمتهم مشكوكاً بها كثيراً، بينما يجب على الأقل الحضور المنتظم لأربعة أفراد على الأقل لإجراء لعبة بوسطن؛ وهكذا اضطرت الآنسة إلى الاعتذار جهاراً من صديقاتها القديمات والعودة إلى زيارتهن، لأن العوانس يسأمن من قضاء الوقت وحيدات دون أن يسعين إلى المُتع الملتبسةبالمجتمع. من السهل تصور سبب انقطاع بيروتو عن السهر في المنزل، وبالرغم من أن الوكيل كان من الذين أشير إليهم بكلمة الإنجيل «**طوبى للفقراء بالروح**»! فإنه لم يستطع شأن الكثير من الحمقى أن يتحمل السأم الذي يسببه له حمقى آخرون. فالأشخاص البليدو التفكير يشبهون الأعشاب السيئة التي تمرع في الأراضي الطيبة، وهم يحبون أن يتسلوا بقدر مايتضجرون من الاجتماع فيما بينهم. فتجسد الملل الذي يقعون ضحيته مقترناً بالحاجة التي يشعرون فيها بالانفصال باستمرار عن ذواتهم يحدث لديهم ذلك الهوس بالحركة، وتلك الضرورة بأن يكونوا دائماًفي أمكنة لايوجد فيها أولئك الذين يميّزونهم، كالكائنات المجردة من الإحساس، وأولئك الذين خاب أملهم، أو الذين يتألمون من أخطائهم.

لاحظ الراهب المسكين بيروتو، دون أن يسبر كثيراً خواء الآنسة غامار وعدم أهليتها، ودون أن يعلل ضحالة أفكارها، إنما متأخر قليلاً لسوء حظه، العيوب التي تشارك بهاالآنسة جميع العوانس، وتلك الخاصة بها. إن السوء لدى الغير يتباين بشدة مع الصلاح، بحيث يتجلى دائماً أمام نظرنا قبل أن يسبب لنا أي أذى، وهذه الظاهرة المعنوية تبرر، عند الحاجة، الميل الذي يحملنا تقريباً نحو الغيبة. إنه لطبيعي جداً من الناحية الاجتماعية، أن نسخر من عيوب الغير، وبالتالي فيجب أن نسامح الثرثرة الساخرة التي تفسح لها نقائصنا المجال، وأن نبدي استغرابنا من النميمة.

لكن عيني الوكيل الساذج لم تكونا أبداً بهذه القدرة البصرية التي تسمح لأفراد المجتمع برؤية خشونات الجار وتجنبها سريعاً؛ فكان ملزماً إذاً للتعرف على عيوب مضيفته أن يتلقى الإنذار الذي توجهه الطبيعةلجميع مخلوقاتها وهو الألم. فالعوانس اللواتي لم ينثن طبعهن أو حياتهن أمام حيوات أو طبائع أخرى كما يقتضي قدر المرأة، يتصفن بهوس إرادة إخضاع كل شيء حولهن[1]. وهذا الإحساس لدى الآنسة غامار تحول إلى طغيان، لكنه لم يتناول إلا الأشياء الصغيرة. وهكذا فمن بين آلاف الأمثلة، فإن سلة الفيش الموضوعة على منضدة لعبة البوسطن يجب أن تبقى في المكان الذي وضعتها فيه، لكن الأب بيروتو يعاكسها بشدة عند تغيير مكانها، وهذا مايحصل تقريباً كل مساء. من أين تنبع هذا الحساسية الموجهة بغباء نحو التوافه، وما الغاية منها؟ ما من أحد يمكنه الإجابة، فالآنسة غامار نفسها لاتعرفها؛ والنزيل الجديد رغم أنه وديع بطبعه كخروف، فإنه لايحب إلا النعاج التي تخشى العصا غالباً وخاصة إن كانت مجهزة بواخزة، ودون

(١) مسألة العانس، والإيديولوجية المصاغة عنها، هما بالطبع اصطلاحيتان، ففي **مجلة باريس** للعام ١٨٣٣ (المجلد ٤٧) وضعت دلفين جيراردن نوعاً من فيزيولوجية العانس ضمنتها قائمة بمختلف أنواع هذه الزمرة. لكن فيما يتعلق بعانس المقاطعات، تذكر وضع العانس التي تعيش لدى أخيها وتدير منزله، مما ينطبق على زفرين دو غينيك في بياتريس، أكثر من انطباع على الآنسة غامار. ويتجلى تفرد بلزاك في أنه دمج هذه المسألة في مجموعة روائية محاولاً أن يتجاوز الكاريكاتور ليؤكد على الإنسلاب والكبت، وهذا ماينطبق بشكل أكثر واقعية على روزكورمون (في رواية **العانس** ١٨٣٦- من مشاهد المقاطعات) أكثر من انطباقه على صوفي غامار.

أن يسعى لفهم أناة الأب تروبير فإنه أراد أن يتملص من السعادة التي تزمع الآنسة غامار على أن تعدها له وفق طريقتها، وهي تظن أن منها مايمكن تجهيزه كمربياتها؛ لكن الراهب التعس تصرف ببعض رعونة تعود إلى سذاجة طبعه، فلم يتم هذا التنائي دون توترات وإزعاجات جهد الأب بيروتو أن يظهر عدم تأثره بها.

بانقضاء السنة الأولى المنصرمة تحت سقف الآنسة غامار إرتد الوكيل الأسقفي إلى عاداته القديمة، بقضاء سهرتين في الأسبوع لدى السيدة دي ليستومير، وثلاث لدى الآنسةسلمون، والاثنتين الباقيتين لدى الآنسة مِرلَن دي لابلوتيير، وهذه الشخصيات تنتمي إلى الطبقة الارستقراطية من المجتمع التوريني التي لاتقبل الآنسة غامار في أوساطها. وهكذا فإن المضيفة شعرت بإهانة شديدة لهجر الأب بيروتو لصالونها واعتبرته حطاً لكرامتها: إذ أن كل نوع من الانتقاء ينطوي على ازدراء للشيء المرفوض...

قال الأب تروبير لأصدقاء الآنسة غامار عندما اضطرت أن تتخلى عن أمسياتها: «إن الأب بيروتو لم يجدنا على قدر من اللطف، فهو رجل ظرف ذواقة! تلزمه العشرة الجميلة، والترف، والأحاديث ذات التوريات وغمائم المدينة.»

هذه الكلمات قادت الآنسة غامار إلى تبرير رهافة طبعها على حساب بيروتو فقالت:

«إنه ليس على هذا القدر من النباهة، ولولا الأب شابلو لما استقبل أبداً لدى السيدة دي لستومير. أوه! كانت خسارتي فادحة بوفاة الأب شابلو، ويا للرجل اللطيف، السهل المعشر! أخيراً، خلال اثني عشر عاماً لم ألق أي صعوبة في معاملته، ولم يسبب لي أية مضايقة».

رسمت الآنسة غامار للأب بيروتو صورة قليلة الإطراء، فبدا النزيل البريء لدى تلك الجماعة البورجوازية، المعادية سراً للجماعة الارستقراطية، رجلاً مشاكساً بصورة رئيسة، وصعب المعشر. ثم إن العانس سرّها لعدة أسابيع أن

تستمتع إلى شكاوي صديقاتها، اللواتي دون أن يؤمن بصدق أي كلمة مما ينطقن به، مافتئن يرددن على مسامعها العبارات التالية: «كيف وأنت مثال الرقة والطيبة، يمكنه أن يبدي نحوك مثل هذا النفور...» أو «أطمئني يا عزيزتي الآنسة غامار فأنت معروفة جيداً بحيث...» الخ... لكنهن وقد سرّهن الخلاص من سهرة في الأسبوع ضمن الرواق، المكان القفر، الأكثر قتامة وبعداً عن مركز مدينة تور(١) اثنين جميعاً على بادرة الوكيل الأسقفي. بين الأشخاص المتواجهين دون انقطاع، يتطور الكره والحب إلى إزدياد دوماً: إذ توجد في كل لحظة أسباب لزيادة الحب أو زيادة الكره، وهكذا غدا الأب بيروتو غير محتمل بالنسبة للآنسة غامار. فبعد ثمانية عشر شهراً من إقامته في منزلها، وبعد أن ظن الرجل الطيب أنه حصل على طمأنينة الاكتفاء بصمت الكراهية، وهنأ نفسه لأنه عرف كيف يأتلف مع العانس، وفقاً لتعبيره، إذ به يغدو بالنسبة إليها هدفاً لاضطهاد أصم، ولانتقام خطط له ببرود، والنتائج الرئيسةالأربعة من الباب الموصد، والخف المنسي حتى النار الخامدة والشمعدان المنقول يمكنها لوحدها أن تكشف له عن تلك البغضاء الرهيبة التي لن تصيبه عواقبها الأخيرة إلا في اللحظة التي تتعذر العودة عنها. جرب الوكيل الطيب وهو يحاول الإغفاء أن ينقب عبثاً في صميم مخه، ووصل بالتأكيد سريعاً إلى عمق أعماقه، دون أن يجد تفسيراً لسلوك الآنسة غامار المفرط في قلة التهذيب تجاهه، والواقع أنه، وهو المستجيب لقوانين أنانيته الطبيعية في تصرفه المنطقي السابق، تعذر عليه اكتشاف ماارتكبه من أخطاء تجاه مضيفته. ولئن كانت الأشياء الجلّى بسيطةعلى الإدراك، سهلة على التعبير؛ فإن توافه الحياة تتطلب كثيراً من التفاصيل. إن الأحداث التي تشكل بطريقة ما المشهد المسبق لهذه المأساة البورجوازية، إنما حيث تبدو الأهواء بمثل العنف الذي تستثيره المصالح الكبرى، قد

---

(١) التلميح الوحيد في القصة إلى المحور الشمالي ـ الجنوبي الذي يخترق مدينة تور، وقد غدا منذ نهاية القرن الثامن عشر أي بعد انتهاء بناء الجسر على نهر اللواء «المركز»الحقيقي للمدينة، ومن المستغرب ألا نجد في أي من روايات «**الملهاة الإنسانية**» تلميحاً إلى ذلك الشارع.

اقتضت هذه المقدمة الطويلة، إذ يصعب على المؤرخ الحق دون ذلك أن يضغط التطورات الدقيقة.

في صباح اليوم التالي استغرق بيروتو، عند استيقاظه، في التفكير بقونتته حتى أنه نسي الظروف الأربعة التي رأى فيها عشية ذلك اليوم الإنذارات المسبقة المشؤومة بمستقبل مليء بالتعاسة؛ ولم يكن الوكيل ذلك الرجل الذي ينهض من فراشه قبل إيقاد النار في مدفأته، فقرع الجرس ليعلن لماريان استيقاظه وليدعوها للحضور إليه؛ ثم بقي وفقاً لعادته غارقاً في أضغاث الأحلام المسترخيةالتي اعتادت الخادمة أن تنتزعه منها برفق بعد أن توقدالنار في المدفأة، مدندنة باستفهاماتها عن حاجاته، وتنقلاتها في الشقةبحركة موسيقية تعجبه. ومرت نصف ساعة ولم تظهر ماريان، ورن الوكيل، وهو يخال نفسه في منتصف الطريق إلى القونة، مجدداً. وعندما ترك حبل الجرس سمع وقع خطوات رجل على السلم. وبالفعل فإن الأب تروبير بعد أن قرع برفق على الباب، دخل عند دعوةبيروتو له؛ ولم تفاجئ هذه الزيارة الوكيل، فقد كان الكاهنان يتبادلان الزيارة بانتظام مرة في الشهر؛ لكن الكاهن القانوني دهش منذ أن لاحظ أن ماريان لم توقد النار حتى تلك اللحظة لدى شبه زميل له؛ ففتح النافذة ونادى ماريان بصوت قاس طالباً منها أن تحضر إلى شقة بيروتو، ثم التفت إلى أخيه الراهب قائلاً: «إذا علمت الآنسةأنك دون نار حتى الآن، فستوبخ ماريان».

بعد تلك العبارة استوضح بيروتو عن صحته وسأله بصوت متودد إن كانت قد وصلته معلومات جديدة تبعث على تحقيق آماله في تسميته كاهناً قانونياً. وشرح له الوكيل مساعيه، وأعلمه ببراءة عن الأشخاص الذين تتوسط لديهم السيدة دي ليستومير، وهو يجهل أن تروبير لم يغفر أبداً لتلك السيدة عدم استقبالها له رغم أنه قد رشح مرتين ليكون وكيلاً عاماً للأبرشية[1].

---

(١) وكيل الأبرشية العام: رجل كهنوت يدير الأبرشية تحت سلطة المطران.

من المتعذر مصادفة وجهين يظهران مثل هذا التباين الموجود بين هذين الراهبين فتروبير[1] طويل معروق بلون شاحب صفراوي، بينما الوكيل ينطبق عليه مايلقب دون كلفة الربيل[2]، فوجهه مستدير محمر مصطبغ بطيبة لاتثير أي أفكار، بينما وجه تروبير الطويل المخدد بتجاعيد عميقة يتقلص في بعض اللحظات مظهراً تعبيراً مليئاً بالسخرية أو بالازدراء: لكن يجب مع ذلك تأمله بدقة ليكتشف فيه هذين الإحساسين؛ فالكاهن القانوني يبقى عادة محافظاً على هدوء كامل، مسبلاً جفنيه بشكل دائم تقريباً على عينين بلون برتقالي، تغدو نظرتهما عندما يشاء صريحةنفاذة، وشعر أحمر يتمم هذه السحنة الكئيبة المزدادة قتامة دون انقطاع بحجاب تخلعه التأملات الغامضة على قسماته، مما دفع عدة أشخاص للإعتقاد أولاً أنه مستغرق في طموح سام عميق؛ لكن أولئك الذين ادعوا حسن معرفتهم به، انتهوا إلى نقض هذا الرأي، واعتبروه مخبولاً بما تمارسه عليه الآنسة غامار من استبداد ومايعانيه من مشقة في صيامات طويلة. لم يكن يتكلم إلا نادرا، ولايضحك أبداً، وإن حصل له أمر يثير انشراحه بدت على محياه ابتسامة باهتة سرعان ماتضيع بين تجاعيد وجهه. أما بيروتو فكان على العكس، كله انبساط، وكله صراحة، يحب الأطعمة الشهية، ويتسلى بالترهات ببساطة رجل دون ضغينة أو مكر. الأب تروبير يدفع عند النظرة الأولى إلى الشعور برهبة لا إرادية، بينما يثير الوكيل ابتسامة رقيقة لدى من ينظر إليه. عندما يسير الكاهن القانوني الطويل القامة بين قناطر سان غاتيان وأجنحتها بخطواته الرصينة، وجبهته المحدبة، وعينه النفّاذة، فإنه يبعث على الاحترام: فوجهه المقوس يتناسق مع حنيّات القباب الصفراء في الكاتدرائية، وثنيات جبته فيها شيء أثري يلفت نظر النحات.

---

(١) سبق لنيكول موزه واضعة الدراسةاللاحقة عن قصة«كاهن تور» أن نشرت مقالاً في السنة البلزاكية- العام ١٩٧٠ - بعنوان «شخصيةتروبير وولادة قصة كاهن تور» تذكر فيها أن أحد الكهنة المسمى السيد دوبر الذي عاش في رواق كنيسةسان غاتيان وأقسم يمين الولاء للدستور العام ١٧٩١ هو نموذج تروبير.

(٢) الربيل: السمين.

أما الوكيل الطيب فيهرول عبرها دون رصانة قافزاً أو منزلقاً كأنه يلتف حول نفسه. غير أن بين الرجلين بعض الشبه، فكما أن المظهر الطموح لتروبير، دفع إلى الخشية منه، وساهم على الأرجح في تجميده عند الدور التافه لكاهن قانوني بسيط، فإن طبع بيروتو وهيئته نذراه سرمدياً لوكالة الكاتدرائية؛ غير أن الأب تروبير ببلوغه الخمسين من العمر، بدد كلياً، بحسن سلوكه، ومظهر زهده التام بأي منصب، وحياته الورعة، مخاوف رؤسائه الناتجة عن قدرته المريبة ومظهره الرهيب؛ كما أن صحته قد تراجعت بشكل كبير منذ نحو سنة، مما جعل ترقيته القريبة إلى رتبة وكيل عام للبطريركية محتملة؛ فمنافسوه بالذات تمنوا له هذه التسمية ليتمكنوا من الإعداد جيداً لأنفسهم خلال الأيام القليلة التي يمنحها لهم مرضه المزمن؛ بينما الذقن المثلثة للأب بيروتو أبعد من أن تعرض الآمال ذاتها للمنافسين الذين يزاحمونه على رتبة الكاهن القانوني، فهي تبدي ملامح صحة عامرة، وحتى آلام النقرس تبدو لهم، وفق المثل المألوف، ضمانة عمر طويل. أما الأب شابلو فكان رجلاً بعيد النظر، يسعى إلى الاستمتاع بلطفه أصحاب العشرة الطيبة، ومختلف الرؤساء في مركز الأسقفية، وقد عارض دائماً، إنما سراً وبكثير من النباهة، ارتقاء الأب تروبير، حتى إنه أيضاً أوصد في وجهه، وبمهارة كبيرة، أبواب جميع الصالونات التي تجتمع فيها نخبة أهالي تور؛ بالرغم من أن تروبير مافتئ يعامله طيلة حياته، باحترام كبير مظهراً له في كل مناسبة أجل التقدير، لكن هذا الانقياد المستمر لم يغير رأي المرحوم الكاهن القانوني بزميله، حتى أنه في آخر نزهة له قال لبيروتو: «احذر هذا الطويل المعروق تروبير! إنه سكست كنْت[1] متقلصاً إلى نسب المطرانية». هذا هو صديق ونديم الآنسة غامار الذي حضر غداة اليوم، الذي صح فيه القول إنها أعلنت الحرب على بيروتو المسكين، لزيارته معبراً عن مظاهر الصداقة له.

(١) سكست كنْت (١٥٢١-١٥٩٠) اسمه الأول فيليس بيرتي، انتخب بابا في العام ١٥٨٥ بفضل مهارته في المراءاة فقد تظاهر خلال ثلاثة عشر عاماً بالمرض والعجز، وما أن تم انتخابه حتى انتصب مستقيماً كالرمح، أمام ذهول الحاضرين، بعد أن كان محني القامة باستمرار. تدخل في نزاعات فرنسة الدينية أيام هنري الرابع (انظر رواية **العانس** - لبلزاك).

قال الكاهن القانوني عند رؤيته ماريان تدخل الشقة: «يجب أن تعذر ماريان، وأنا اعتقد أنها بدأت بإشعال النار لدي أولاً، فشقتي رطبة جداً، وقد انتابني السعال طيلة الليل». ثم أضاف وهو ينظر إلى الأفاريز الواقية للشقةمن المطر: «إنك في وضع صحي ملائم جداً هنا».

أجاب بيروتو باسماً: أوه إنني هنا كاهن قانوني.

وعقب الأب المتواضع: وأنا في وضع وكيل.

قال بيروتو الطيب وقدأراد إسعاد جميع الناس: نعم لكنك ستسكن قريباً في البطريركية.

رفع تروبير عينيه إلى السماء بحركة ارتضاء للقدر قائلاً: أوه! أو في المقبرة، إنما لتكن مشيئة الله» ثم أضاف: «جئت أرجو أن تعيرني جداول دخل المطارنة[1]؛ فهذا المؤلف لايوجد في تور إلا لديك».

رد بيروتو وقد جددت العبارة الأخيرة للكاهن القانوني ذكرياته بجميع متع حياته:

«خذه، إنه في مكتبتي».

انتقل الكاهن القانوني الكبير إلى المكتبة مفسحاً المجال للوكيل لارتداء ثيابه، وسرعان ماسُمع قرع جرس الإفطار، وفكر الأب المصاب بالنقرس أن الفضل في إيقاد النار لديه هذا اليوم يعود لزيارة تروبير، فنهض وهو يقول في نفسه: «إنه رجل طيب» نزل الكاهنان معاً، يتأبط كل منهما كتاباً مجلداً كبيراً وضعاه على إحدى خزائن غرفة الطعام.

سألت الآنسة غامار بصوت جاف موجهة كلامها لبيروتو: «ماهذا؟ آمل ألا تشغل قاعة طعامي بكتبك».

(١) جداول دخل المطارنة: كتاب من أربعة أجزاء كبيرةظهر في القرن الثامن عشر بعنوان: «دخل الأسقفيات والأديرة في فرنسة» وهو أحد المؤلفات العامة في فرنسة التي تعالج هذا الموضوع بشكل شامل له إلى جانب مؤلفات أخرى تبحث بشكل خاص في دخل دير أو أبرشية محددة.

رد الأب تروبير: «إنها كتب احتاج إليها، وقد تلطف السيد الوكيل بإعارتها لي، قالت وقد ظهرت على شفتيها بسمة ازدراء: كان يجب أن أخمن ذلك، فالسيد بيروتو لايقرأ غالباً في هذه الكتب الضخمة».

قال الوكيل النزيل بصوت منغم بنعومة: كيف الأحوال، يا آنسة؟

ردت الآنسة غامار بخشونة: «لست على مايرام، فقد كنت السبب في استيقاظي مساء البارحة وأنا في بدء غفوتي، مما سبب تألمي طوال الليل». ثم جلست مضيفة: «يكاد الحليب يبرد أيها السيدان».

ذهل الوكيل المسكين من هذا الاستقبال الجاف، بينما كان ينتظر من مضيفته أن تعتذر له، لكنه وهو المذعور كجميع الأشخاص الخجولين، باحتمال قيام جدل، وخاصة إن كانوا موضوعاً له، جلس صامتاً. وعندما لاحظ على وجه الآنسة غامار دلائل مزاج متعكر، بقي باستمرار في صراع مع تعقله، الذي كان يأمره بألا يقلل من مراعاته لمضيفته، كما أن طبعه حمله على تجنب الخصام؛ فراح وهو فريسة لهذا القلق يتأمل باهتمام الخطوط الخضراء الكبيرة المرسومة على غطاءمن التافتا المصفر متلمعاً من جراء استعمال لاتحدّه الذاكرة، واستمرت الآنسة غامار في تغطية المائدة به دون أن تنتبه إلى أطرافه المهترئة أو إلى الثقوب العديدة فيه. وكان كل من الراهبين النزيلين مستقراً على كرسي ذي ذراعين من خيزران، أحدهما في مواجهة الآخر من طرفي تلك المائدة المربعة بفخامة، وقد شغلت المضيفة الضلع الرئيس فيها على كرسي متحرك مزين بالوسائد إلى جانب مدفأة القاعة الواقعة مع الصالون في الطابق الأرضي من الجناح الذي يشغل الأب بيروتو شقة الطابق الأول فيه.

عندما تلقى الوكيل من الآنسة غامار كأس قهوته المحلى، تجمد في صمت عميق وهو يتمم عملية تناول إفطاره التي جرت العادة على إجرائها بروح مرحة. لم يكن يجسر على النظر إلى وجه تروبير القاحل، ولا إلى سحنة العانس المهددة، والتفت ليخفي اضطرابه نحو كلب ضخم من فصيلة «الكارلن» ممرع بدانة، وهو قابع على وسادة قرب المدفأة، دون أن يحرك ساكناً، وإلى يساره على الدوام وعاء

ممتلئ بمآكله، وعلى يمينه كأس ماء صاف خاطب الكلب بقوله: «وبعد أيها الظريف، هل تنتظر قهوتك؟!».

هذا الكائن الحي هو أحد المخلوقات الأكثر أهمية في المنزل، لكنه قليل الإزعاج، فهو لاينبح أبداً، تاركاً الكلام لسيدته؛ رفع عند مخاطبته نحو بيروتو عينين غارقتين في ثنيات تشكلها طبقة شحمية حول صدغيه، ثم أغلقها بتستر.

لإدراك حرج الوكيل المسكين، من الضروري القول إنه، وقد وهب ثرثرة فارغة مرنة مثل صدى كرة نطاطة، يزعم دون أن يتمكن من تقديم أي حجة مقنعة للأطباء بأن الكلام يساعد على الهضم، . ولم يفت الآنسة، المؤيدة لهذا المبدأ الصحي، رغم سوء تفاهمهما، الاسترسال في الكلام خلال وجبات الطعام. لكنها لزمت الصمت منذ بضعة أيام، وجرب الوكيل عبثاً استخدام ذكائه في توجيه أسئلة خداعة ليتوصل إلى فك عقدة لسانها. ولو سمحت الحدود الضيقة التي التزمت بها هذه القصة برواية أي من هذه الأحاديث[1] التي كانت تثير دائماً ابتسامة الأب تروبير المرّة الساخرة، لقدمت لوحة مكتملة عن الحياة البليدة لسكان الأقاليم. وبعض الظرفاء سيدركون على الأرجح بسرور تطور آراء الأب بيروتو والآنسة غامار الشخصية في مضامير السياسة والدين والأدب؛ ففي عرضها بعض الفكاهة: سواء من حيث الأسباب التي دفعت كلاً منهما إلى الشك بجد، في العام ١٨٢٦، بموت نابوليون؛ أو في التخمينات التي يعرضانها حول بقاء لويس السابع عشر[2] على قيد الحياة، بعد أن نجا باللجوء إلى تجويف جذع شجرة ملقاة كحطبة مقطوعة. من لم يسخر عند سماعهما يسردان الأسباب المقنعة، بداهة، لهما فقط بأن ملك فرنسة يتصرف بمفرده بجميع الضرائب؛ وأن المجلسين التشريعيين قد

---

(١) موضوع هذه الأحاديث السائدة في المقاطعات، التي بوشر بقليل منها هنا سيتطرق إليها بالتفصيل في روايتي **العانس**، و**أوهام ضائعة**. .

(٢) هو ابن لويس السادس عشر، وماري أنطوانيت (١٧٨٥-١٧٩٥) كان ولياً للعهد في العام ١٧٨٩ وسجن في التامبل وتوفي نتيجة لسوء المعاملة في العام ١٧٩٥، لكن أثيرت كثير من الشائعات حول تهريبه من السجن وبقائه على قيد الحياة مما أظهر بعض المدعين المتلبسين لشخصيته، وأشهرهم الساعاتي الألماني نوندورف (١٧٨٧-١٨٤٥).

اجتمعا لتدمير الكهنوت، وأن مليوناً وثلاثمئةألف شخص قد أعدموا على المقصلة في عهد الثورة؟ ثم حديثهما عن الصحافة دون أن يعرفا عدد الصحف، ودون امتلاكهما أيّة فكرة عن هذه الأداة الإعلامية الحديثة. أخيراً فإن السيد بيروتو كان يستمع بانتباه للآنسة غامار عندما تؤكد أن رجلاًيتناول بيضة كل صباح سيموت حتماً في نهاية السنة، وأن هذا قد حدث؛ وأن رغيفاً من الخبز الأبيض الخفيف، يتناول دون شراب، يشفي بعد عدة أيام من عرق النسا؛ وأن جميع العمال الذين شاركوا في هدم دير سان مارتن[١] قد لقوا الموت خلال ستة أشهر؛ وأن أحد المحافظين[٢] حاول بما وسعه من جهد أن يدمر أبراج كاتدرائية سان غاتيان؛ وألف قصة أخرى غير معقولة! لكن بيروتو كان يشعر في تلك اللحظةبأن لسانه متيبس في حلقه، فانصرف إلى فطوره دون إثارة أي حديث، ثم حسب أن هذا الصمت خطر على معدته، فقال بجرأة: «هي ذي قهوة فائقة الجودة!» لكن هذا التصريح الجريء ذهب عبثاً؛ وبعدأن نظر إلى السماء من الفجوة الفاصلة فوق الحديقة بين دعامتين سوداوين من دعائم سان غاتيان تجرأ الوكيل على القول أيضاً: «إن الطقس اليوم سيكون أفضل منه في البارحة».

آنذاك اكتفت الآنسة غامار بتوجيه إحدى أرق غمزاتها للأب تروبير، ثم ارتدت بعينيها بعد التماعهما بقسوة رهيبة إلى بيروتو الذي خفض لحسن الحظ ناظريه. ما من مخلوقة بين النساء طرا، بمثل قدرة الآنسة صوفي غامار على صياغة الطبيعةالرثائية للعانس. لكن لرسم كائن يهيء طبعه فائدة قصوى للأحداث الصغيرة في هذه المأساة، وللحياة الخاصة للشخصيات الممثلة لها، قد يكون من

---

(١) تعود كاتدرائيةسان مارتن الحالية إلى القرن التاسع عشر وقد قامت مكان الدير العائد للعصر الوسيط والذي هدم في العام ١٨٠٢ لتبنى الكنيسةمكانه. ولم يحتفظ من الأثر القديم إلا ببرجي الساعة وشارلمان.

(٢) هذا المحافظ هوبوميرول صديق لبلزاك، وعرف بمقاومته للإكليروس وعزل من منصبة في العام ١٨٠٦ نتيجة لخلافه مع بطريرك تور وحل محله البارون لامبر.

يجدر بالذكر أن جميع هذه القصص التي يسردها بلزاك هنا تعود إلى عهد الثورة والعهد الامبراطوري أي إلى أيام طفولة بلزاك (المولود في تور العام ١٧٩٩).

الأفضل هنا تلخيص الأفكار التي تجد تعبيرها في العانس : إن الحياة العادية تشكل الروح، والروح تنطبع على السحنة، وإذا كان كل شيء في المجتمع، كما في الكون، له غاية، فمن المؤكد أن في هذه الدنيا بعض المخلوقات التي لايمكن تفسير فائدة وجودها أو الغاية منه؛ فالأخلاق والاقتصاد السياسي يرفضان على السواء الفرد الذي يستهلك ولاينتج، الذي يشغل مكاناً على الأرض دون أن ينشر حوله الخير والشر؛ إذ أن الشر هو دون شك خير لاتظهر نتائجه مباشرة. ومن النادر ألا تصنف العوانس أنفسهن بالذات في صف هذه الكائنات غير المنتجة. ولئن كان وجدان العامل يمنحه إحساس بالرضا يساعده على تحمل الحياة، فيقين شخص بأنه عالة على غيره أو حتى أنه دون فائدة يجب أن يحدث تأثيراً معاكساً، ويوحي لنفسه، بالازدراء الذي يثيره الكائن الخامل لدى الآخرين. هذا النبذ الاجتماعي القاسي هو أحد الأسباب التي تساهم، دون علم العوانس، بإحلال كآبة في نفوسهن، تعبر عنها وجوههن. إن حكماً مسبقاً يتضمن حقيقة على الأرجح يشير باستمرار في كل مكان، وفي فرنسة خاصة أكثر من أي بلد آخر إلى عدم الرضى عن المرأة التي لم يرد أي إنسان أن يشاركها في مسرات الحياة، أو يتحمل معها أعباءها. والحال إن الفتيات يصلن إلى سن يحكم الناس فيها عليهن بأنهن سبب الازدراء الذي وقعن ضحيته؛ فإن كن دميمات وجب لطيب معشرهن أن يعوض عن عيوب الطبيعة؛ أما الجميلات فلا شك أن سوء حظهن يعود لأسباب خطيرة. ولانعرف أياً من هؤلاء أو أولئك أحق بالإهمال؛ فإن كانت عزوبتهن مبررة، أو إن كانت تعود إلى رغبة في الاستقلال، فلا الرجال ولا الأمهات يغفرن لهن تنكرهن لتفاني المرأة برفضهن العواطف المميزة لتأثير جنسهن : أن تتخلى المرأة عن آلامها، يعني تنازلها عن عرش الشعر وعدم استحقاقها للمواساة العذبة التي لاتقبل حقوق الأم المنازعة فيها. ثم إن العواطف السمحاء، والمزايا الساحرة في المرأة لاتنمو إلا بالمراس المستمر، فبقاء مخلوقة من الجنس اللطيف عزباء ليس إلا لغواً وأنانية وبرودة تثير الرعب. هذا القرار القاسي صحيح جداً للأسف بحيث ينبغي على العوانس ألا يجهلن دوافعه. وهذه الأفكار تنمو في قلوبهن بمثل طبيعة تأثيرات حياتهن الكئيبة على قسماتهن. إنهن يذوين لأنهن لم يعرفن أبداً الانبساط

المستمر أو السعادة التي تبهج وجه النساء وتسكب الكثير من الحيوية في حركاتهن. لم توجد أبداً لديهن، وهكذا يغدون عنيفات مشاكسات لأن الكائن الذي فاته قدره تعيس، أنه يتألم، والألم يولد الخبث. والواقع أن الفتاة، قبل أن تلوم نفسها على عزلتها، تلوم، ولمدة طويلة، العالم. وبين اللوم والرغبة بالانتقام لايوجد إلا خطوة واحدة. والإحساس بالسماجة ماهو إلانتيجة حتميةلحياة العوانس؛ فعدم شعورهن بالحاجة إلى نيل الإعجاب يبعدهن عن الأناقة والذوق الحسن، ولايرين إلا أنفسهن، وهذا مايدفعهن تدريجياً إلى اختيار الأشياء المريحة لهن على حساب تلك التي يمكن أن تسر الآخرين، ودون أن يقدِّرن على البدء تباينهن عن النساء الآخريات، ينتهين إلى ملاحظة ذلك والتألم منه. والغيرة عاطفة ثابتة في قلوب النساء، والعوانس غيارى في فراغ، ولايعرفن إلا شقاء هذا الهوى الوحيد الذي يغفره الرجال للجنس اللطيف لأنه يطريهم؛ وهكذا فهن خائبات في جميع أمنياتهن، مضطرات للامتناع عن التصرف وفق طبيعتهن، يجدن حرجاً داخلياً لايمكن أن يألفنه أبداً. أليس من القسوة، في جميع الأعمار، وخاصة بالنسبة لامرأة، أن تلاحظ على الوجوه الإحساس بالنفور، بينما قدرها ألا توقظ حولها، وفي القلوب إلا الأحاسيس المرحبة؟ وهكذا فإن نظرة العانس مواربة دائماً، لاتواضعاً، بل خشية وخجلاً؛ وهي لاتغفر للمجتمع وضعها الخاطئ، لأنها لاتغفره لنفسها، وهكذا فمن المستحيل على إنسانة في صراع دائم مع مجتمعها، أو في تناقض مع الحياة، أن تترك الآخرين في طمأنينة، وألا تحسدهم على سعادتهم.

هذا العالم من الأفكار القاتمة كان متجلياً بكامله في عيني الآنسة غامار الرماديتين الذابلتين؛ والهالة العاتمة المحيطة بحجاجيهما تبرز المعارك الطويلة لعيشتها المنزوية. كانت جميع تجاعيد وجهها مستقيمة، وهيكل جبينهاورأسها ووجنتيها يتميز بالصرامة والخشونة؛ وقد تركت بلا مبالاة أشعاراً، كانت في السابق سوداء، تنمو على بعض علامات فارقة متبعثرة على ذقنها، بينما تكاد شفتاها الرقيقتان لاتغطيان أسنانها الطويلة التي لاينقصها البياض. سمراء البشرة، ابيضّ شعرها الأسود سابقاً بتأثير آلام شقيقة مستمرة، مما اضطرها لوضع شعر

مستعار، لكنها لاتعرف ترتيبه بطريقة تخفي منشأه مما يظهر غالباً فجوات خفيفة بين حافة طاقيتها والشريط الأسود الضام لهذا الطوق السيء التجعيد. ثوبها من التافتا صيفاً ومن المرينوز شتاء محافظ دوماً على لونه الأسمر الفاتح، وهو يلتف بضيق حول خصرها المعيب ويديها المعروقتين؛ في تهدله على الدوام تكشف ياقته عن عنق احمرت بشرته وأبدت أخاديد تتوزع عروقها بفن كورقة بلوط يخترقها الضوء. يفسر محتدها إلى حد مقبول تعاسة خلقتها. فهي ابنة فلاح سابق أثرى من تجارة الأخشاب. ويحتمل أنها كانت في الثامنة عشر من عمرها نضرة، بضّة، لكن لم يبق لها أي أثر من بياض البشرة ولامن نضارة الشباب الزاهية التي تدّعي وجودها السابق؛ ففوارق ألوان الجلد نالت من البياض الشائع عامة لدى الورعات. أنفها الأقنى يشكل كل قسمات وجهها المعبر عن استبداد آرائها، كما أن شكل جبينها المسطح يفضح ضيق تفكيرها؛ وحركاتها المفاجئةبغرابتها تخلو من أي ذوق، وتكفي رؤيتها وهي تتناول من حقيبة يدها منديلاً تمخط به مغمغمة ضاجة للدلالة على طبعها وعاداتها. هي أميل إلى الطول، تبرر بانتصاب قامتها ملاحظة العالم الطبيعي، الذي شرح فيزيائياً مسعى جميع العوانس، مدعياً التحام مفاصلهن؛ فهي تمشي دون أن تتوزع حركتها على أعضاء جسمها فتخلو من تلك التموجات الرقيقة الساحرة في النساء؛ وهي تبدو، إن صح القول، كقطعة واحدة، تتقدم في كل خطوة كتمثال قائد فارس. تلمح في لحظات بشاشتها إلى ماسنح لها من فرص للزواج، وإلى ملاحظتها في الوقت المناسب. لحسن الحظ، لسوء نيةخاطبها، وهكذا كانت تعيد، دون دراية، جمود عاطفتها لمصلحة يقظة ارتيابها.

هذه الصورة النموذجية لجنس **العانس** كانت مؤطرة جيداًبالابتكارات البشعة لورق مبرنق[1] يمثل مناظر تركية تزين جدران قاعة الطعام، وكانت الآنسة غامار تمكث عادة في تلك الغرفة المزينة بمنضدتين مزخرفتين وبارومتر، وفي المكان المعتمد لكل راهب توجد وسادة صغيرة منجدة حال لونها. وكانت الصالة العامة التي

---

(١) الورق المبرنق: ورق جدران مزخرف شائع، كانت تنفذ زخرفته بمرسام يبرنق بعدها بدهان لماع ويظن أن هذا الورق المسمى «ضفاف البوسفور» كان ينتج في معامل «دوفور ولروا» نحو العام ١٨٢٥.

تستقبل بها أهلاً لها، وستغدو مشهورة بملاحظة أنها تسمى الصالون الأصفر، فالستائر صفراء، والأثاث والطنافس صفراء، وعلى المدفأة المزينة بمرآة ذات إطار مذهب توجد مصابيح وساعة نواسة من الكريستال تلقي ببريق يتوهج أمام العين. أما غرفة النوم الخاصة بالآنسة غامار فلم يسمح يوماً لإنسان بالدخول إليها، ويمكن فقط التكهن بأنها مليئةبهذه الخرق، والأثاث البالي، وأنواع الأسمال التي تحيط بالعوانس، والتي يحرصن عليها بشدة.

هذه هي الشخصيةالتي قدر لها أن تمارس أكبر تأثير على أيام الأب بيروتو الأخيرة.

وبعدم ممارستها، وفقاً لمتطلبات الطبيعة، النشاط المخصص للمرأة، ولضرورة تصريف طاقتها الكامنة، فقدحولتها إلى الدسائس الحقيرة، وثرثرات المقاطعات، والتركيبات الأنانية، التي تنتهي جميع العوانس إلى الانشغال بها حصراً. وقد نمى بيروتو، لسوء حظه، لدى صوفي غامار، العواطف الوحيدة التي يمكن لتلك المخلوقة المسكينة أن تشعر بها، عواطف الكراهية، وكانت كامنة حتى حينه نتيجة هدوء ورتابة حياة إقليمية كان أفقها أكثر ضيقاً بالنسبة لها، مما أكسبها شدة أكبر لممارستها على أشياء صغيرة، ووسط محيط محدود. وكان بيروتو من هؤلاء الأشخاص المقدر لهم التألم كلية، لأنهم لايعرفون كيف يرون هذه الأشياء، ولايستطيعون تجنبها، فتقع على رؤوسهم عواقبها.

أجاب الكاهن القانوني بعد فترة وكأنما خرج من حلم يقظةوأراد أن يستدرك مجاملات التهذيب: «نعم سيكون الطقس جميلاً».

ذعر بيروتو من الزمن الذي انقضى بين إبداء ملاحظته وبين الرد عليها، وكانت هذه هي المرةالأولى في حياته التي يتناول فيها قهوته دون أن يتكلم، فغادر قاعة الطعام منقبض القلب كأن فكي كماشة شدت عليه، وأحس بثقل فنجان القهوة في معدته، فذهب يتنزه حزيناً في الممرات الصغيرة الضيقة المحاطة بجنبات البقس(١)، التي ترسم نجمة داخل الحديقة؛ لكنه بالتفاته بعد إجراء الدورة الأولى،

(١) يرمز «البقس» بالنسبة لبلزاك إلى العقم. فهو لاينتج شيئا، ويوقف نموالنباتات التي تنشأ في ظله.

أبصر على عتبة باب الصالون الآنسة غامار والأب تروبير متسمرين بصمت: الراهب متصالب الذراعين، ساكن كتمثال على قبر، والآنسة مستندة على الإطار الخشبي؛ بدا كلاهما عند مشاهدته، وكأنهما يعدان عليه خطواته. ما من شيء يضايق إنساناً خجولاً بطبعه مثل تعرضه لملاحظات فضولية، وهي إن جرت بأعين تتجلى فيها الكراهية، حولت الضيق إلى عذاب لايحتمل؛ وسرعان ماتصور الأب بيروتو أنه يعيق الآنسة غامار والكاهن القانوني عن التنزه، وهذه الفكرة المستوحاة من الجزع والطيبة في آن معاً تعاظمت في نفسه بحيث دفعته إلى إخلاء المكان، فانطلق وقد نسي تماماً قونتته، لشدة استغراقه بطغيان العانس المثير للقنوط، ووجد مصادفة، ولحسن حظه، كثيراً من المشاغل في سان غاتيان، فشارك في عدة جنازات، وعمادين، وقران، مما أنساه همومه؛ وعندما نبهته معدته إلى موعد العشاء، نظر إلى ساعته بذعر وهو يرى عقربيها يشيران إلى عدة دقائق بعد الرابعة، فهو يعرف دقة تقيد الآنسة غامار بالمواعيد، فأسرع إلى الالتحاق بالمنزل.

لاحظ في المطبخ أن الطبق الأول من الوجبة قد تم تقديمه، وعندما وصل إلى قاعة الطعام قالت له العانس بنبرة صوت اختلطت فيها حدة اللوم مع فرحة تسجيل خطأ على نزيلها: «إنها الرابعة والنصف يا سيد بيروتو، وأنت تعلم أنه يجب ألا تدعنا ننتظرك».

نظر الوكيل إلى ساعة الحائط في غرفة الطعام، وظهر له من الطريقة التي وضع حولها الستر الشفاف الواقي لها من الغبار أن مضيفته قد حركتها خلال النهار مستمتعة بتقديمها عن ساعة كاتدرائيةسان غاتيان. مامن ملاحظة ممكنة، فالتعبير الشفهي عن شك يتصوره الوكيل من شأنه أن يسبب أكثر التفجرات المفحمة تبريراً وأرهبها، مما تجيده الآنسة غامار كجميع نساء طبقتها في مثل هذه الأحوال؛ فالآنسة قد خبرت ألف معاكسةومعاكسة مما يمكن لخادمة أن تقابل بها سيدها، أو امرأة زوجها في الأحوال الخاصة من الحياة، وهي ترهق نزيلها بها؛ والطريقة التي تستمتع فيها بتدبير مؤامراتها ضد السعادة المنزلية للكاهن المسكين تحمل طابع العبقرية الأكثر مكراً، وقد تهيأت كي لا تظهر أبداً أنها على خطأ.

بعد ثمانية أيام من اللحظة التي بدأت بها هذه القصة، كشفت سكنى ذلك المنزل، وعلاقات الأب بيروتو مع الآنسة غامار، مؤامرة مدبرة منذ ستة أشهر. كانت العانس تمارس فيها خفية انتقامها، ومادام الوكيل قادراً على أن يتحمل إرادياً الخطأ، مستبعداً الظن بنوايا سيئة، فإن الألم المعنوي لم يؤثر عليه كثيراً. ولكن منذ قضية الشمعدان المنقول، والساعة المسبقة، لم يعد بيروتو يشك بأنه يعيش تحت وطأة كراهية تسلط العين عليه على الدوام، ودب به القنوط سريعاً، وهو يلاحظ في كل ساعة أصابع الآنسة غامار العقفاء والمنسلة جاهزة لتنغرز في قلبه. وكانت العانس سعيدة في العيش ضمن هذا الجو الخصب بالانفعالات التي يثيرها الانتقام، وسرها أن تحوِّم وترهب الوكيل، كما يحوِّم طير جارح ويرهب جرذ الحقل قبل افتراسه. وكانت قد أعدت منذ مدة طويلة خطة لايمكن للكاهن المنذهل أن يكشفها، ولن تتأخر في تنفيذها، مظهرة العبقرية التي يعرف بسطها، في الأشياء الصغيرة، الأشخاص المنزوون الذين تنصرف روحهم، غير المؤهلة للشعور بسمو الورع الحقيقي، إلى دقائق التعبد.

كانت طبيعة هذه الأحزان وهي آخر تفاقم للعناء وأرهبه تحرم بيروتو، وهو رجل انفتاح، محب للإحساس بالرأفة والمواساة، من السلوى المعزية في أن يبوح بها لأصدقائه؛ فقلة الحصافة العائدة إلى خجله تجعله يخشى الظهور بمظهر مثير للسخرية إن عبر عن اهتمامه بمثل هذه الترهات؛ مع أنها تشكل كل كيانه. كيانه العزيز المليء باهتمامات في الفراغ، وبفراغ في الاهتمامات، حياة قاتمة رمادية، تعتبر الأحاسيس الشديدة فيها من المصائب، بينما يعد زوال كل انفعال من المباهج. وهكذا تحولت جنة الكاهن المسكين فجأة إلى جحيم. أخيراً غدت آلامه غير محتملة، فالرهبة التي يسببها له توقع مجابهة مع الآنسة غامار تزداد يوماً بعد يوم، والتعاسة الخفية التي تذوي ساعات شيخوخته تسيء إلى صحته. وفي ذات صباح لاحظ وهو يرتدي جواربه الزرقاء الموشّاة ضموراً في ربلة الساق قلل محيطها بمقدار ثمانية خطوط[1]؛ وأذهله هذا التشخيص المنذر بقسوة لاتدحض فعزم على إجراء

---

(١) الخط: وحدة قياس قديمة تعادل ٢ مم، ثمانية خطوط = ١٦ ملم.

محاولة لدى الأب تروبير ليرجوه التوسط بصفة شبه رسمية بينه وبين الآنسة غامار. بوجوده في شقة الكاهن القانوني المهيب، توجه هذا لاستقباله في غرفة عارية، بعد أن ترك بسرعة مكتباً مليئاً بالأوراق حيث يعمل دون انقطاع[١]، ولا يسمح لأحد بالدخول إليه وشعر الوكيل ببعض الخجل في التحدث عن تنكيدات الآنسة غامار له مع رجل بدا كثير الانشغال في دراسات هامة؛ لكنه بعد أن تحمل جميع كروب هذه الترويات الداخلية التي يعاني منها الأشخاص البسطاء المترددون أو الضعفاء، حتى بالنسبة للأشياء التافهة، قرر وهو يشعر أن خفقات قلبه تتزايد وجيباً أن يشرح وضعه للأب تروبير. واستمع الكاهن القانوني له بسحنة رصينة وباردة، محاولاً، ولكن عبثاً، أن يخفي بعض ابتسامات ربما كشفت للأعين الذكية عن انفعالات انشراح خفي. وبدا بريق متوقد يشع من تحت أجفانه، عندما ردد بيروتو على مسامعه بالبلاغة التي تمليها العواطف الحقيقية، العذاب المرّ والمستمر الذي تجرعه؛ وضغط تروبير بيده على جبينه بحركة مألوفة لدى المفكرين، وحافظ على مظهر الوقار الذي اعتاد اتخاذه. ولو أن الوكيل، عند توقفه عن الكلام، جرب أن يتقصى على وجه الكاهن القانوني المرقط بالبقع، التي زاد شحوبها، عن حالته الصفراوية الاعتيادية، عن بعض آثار مشاعر الشفقة التي وجب أن تستثار لدى هذا الكاهن الغامض، لزاد ارتباكه. فبعد أن بقي تروبير صامتاً للحظةبدر منه أحد تلك الأجوبة التي تقتضي كل من كلماتها دراسةمطوّلة لفهم مضمونها، لكنها تبرهن للمتأمل لها عن عمق غور نفسه وقدرة تفكيره.

أخيراً أرهق بيروتو بقوله: «إن هذه الأشياء تدهشه خاصة وأنه لم يكن ليتوقع أبداً ملاحظتها لولا اعتراف أخيه له، وعزا هذا القصور الذهني إلى اهتماماته الجدية، ومشاغله، وطغيان بعض الأفكار السامية التي لاتسمح له بالنظر إلى ترهات الحياة» ووجه إليه، دون أن يظهر عزمه على نقد سلوك رجل تستحق سنه المتقدمة ومعارفه كل احترامه، ملاحظة خلاصتها «إن النساك نادراً ماكانوا سابقاً

---

(١) يذكر في تور أن الأب دوبو كتب أشياء كثيرة، لكن لم يعثر بعد موته على شيء من كتاباته (انظر نيكول موزه ـ السنة البلزاكية ١٩٧٠).

يفكرون بغذائهم أو سكنهم، بل ينصرفون في عمق عزلتهم إلى تأملاتهم الورعة، وإن الكاهن يمكنه أن يعتبر بالفكر كل مكان له خلوة اعتزال» ثم أضاف: «هذه المحاولات جديدة عليه كلياً، فلم يسبق أن حدث مثيل لها خلال اثنتي عشر عاماً بين الآنسة غامار والأب الجليل المرحوم شابلو. أما بالنسبة له فيمكنه دون شك، أن يغدو حكماً بين الوكيل ومضيفتهما لأن صداقته معها لاتتعدى الحدود التي فرضتها قوانين الكنيسة على خدامها الأوفياء، لكن العدالة تتطلب أن يستمع أيضاً إلى الآنسة غامار، التي لم يجد مع ذلك شيئاً فيها قد تغير، فهي ماتزال كما عهدها، وقد تحمل بكل طيبة خاطر بعض نزواتها، لأنه يعلم أن هذه الآنسة هي مثال الطيبة والرقة، وأنه يجب أن تعزى التغيرات الخفيفة في مزاجها إلى الآلام الناتجة عن تدرن رئوي كتمت أمره، وهي صابرة عليه كمسيحية حقيقية. . . » وأنهى كلامه بالقول للوكيل: «أياً كان عدد السنوات المتبقية له عندالآنسة، فستزيده تقديراً وعرفاناً بكنوز ذلك الطبع الفائق السمو».

خرج الأب بيروتو مرتبكاً، واقتضت الضرورة الحاسمة التي وجد فيها ألا يعتمد إلا على ماينصحه به وجدانه في الحكم على الآنسة غامار، وظن الرجل الطيب أن في تغيبه عدةأيام إخماداً للكراهية التي تكنها له الفتاة، . فعزم على أن يذهب كعادته سابقاً، لقضاء عدة أيام في الريف حيث تمضي السيدة دي لسيتومير في نهاية الخريف حقبة من الوقت تصفو فيها السماء عادة ويعتدل الطقس في تورين. يا للرجل المسكين! لقد حقق بذلك الأمنيات الخفية لعدوته الرهيبة، التي لايمكن لمشاريعها أن تحبط إلا بأناة راهب، لكنه لم يتوقع شيئاً، وبجهله تماماً صيانة مصالحه الخاصة وجب أن يسقط كحمل تحت ضربة الجزار الأولى.

كانت ملكية السيدة دي ليستومير واقعة على التلة التي تفصل مدينة تور عن مرتفعات سان جورج[1] تحيط بها الصخور، وهي بتوجهها نحو الجنوب توفر مباهج الريف، وكل متع المدينة، والواقع لاتستغرق الطريق بين جسر تور والدارة الواقعة

---

(١) مرتفعات سان جورج واقعة شمال نهر اللوار إلى الشرق من دير مارموتيه.

على طرف تلك الملكية والمسماة «القبرة»[١] أكثر من عشر دقائق، وهذه الميزة ثمينة في منطقة لايريد أحد فيها أن يزعج نفسه حتى في الذهاب سعياً وراء إحدى المسرات[٢].

مضى على الأب بيروتو نحو عشرة أيام عندما جاء البواب صباح يوم في موعد الإفطار يعلن له أن السيد كارون يرغب في رؤيته. والسيد كارون محام تعهد إليه الآنسة غامار بقضاياها، وكما لم يتذكر بيروتو أي موضوع نزاع بينه وبين إنسان في العالم يستدعي مناقشة محام، ترك المائدة قلقاً ليجد رجل القانون جالساً بكل تواضع ينتظره على حاجز مصطبة. قال السيد كارون: «إن نيتك في التخلي عن السكن لدى الآنسة غامار غدت واضحة..

هتف الأب بيروتو مقاطعاً: إيه! لكنني ياسيدي، لم أفكر مطلقاً بترك سكني هناك.

تابع المحامي: لكن ياسيدي، كان من الواجب أن تتفاهم مع الآنسة بهذا الخصوص، لأنها أرسلتني بعد هذا الغياب لمعرفة مدة بقائك في الريف غير المصرح عنها في اتفاقيتكم، مما يعتبر موضوع خلاف. والواقع أن الآنسة غامار فهمت منها عدم رغبتك في استمرار الإقامة.. قاطع بيروتو المنذهل مرة أخرى المحامي قائلاً: سيدي، لا أعتقد أن من الضروري اللجوء إلى طرق شبه قضائية من أجل...

رد المحامي مقاطعاً بدوره: إن الآنسة غامار التي تريد توقّي كل صعوبة أرسلتني للتفاهم معك.

أجاب بيروتو عندئذ: حسن، أرجو أن تتكرم بالعودة غداً، لأكون قد أجريت بدوري استشارتي حول هذا الموضوع.

حيّا المحامي وقال وهو ينصرف: فليكن ذلك».

---

(١) القبرة: مايزال يوجد حيّ في تور بهذا الاسم.

(٢) يعتبر بلزاك أن الكسل من الصفات الرئيسة في طبع أهالي منطقة تورين وفي رأيه «أن هذا يعود إلى مناخ ساكن، وغذاء وفير، وغياب الطموح؛ مما يبعد الجسم والروح عن الميول الفاسدة، والأهواء الجامحة، ومساوىء المدن الكبرى (قصة **الصديقين**).

وانسحب قارض الأوراق، وعاد الوكيل المسكين، المذعور من عناد الآنسة غامار في ملاحقته، إلى قاعة طعام السيدة دي ليستومير بوجه مكفهر، مما دفع كل من الحاضرين إلى سؤاله: «ماذا جرى لك أيها الأب بيروتو؟».

جلس الكاهن متضايقاً، دون أن يجيب لشدة تأثره من صور تعاسته المبهمة. لكن بعد الغداء، وتجمع عدد من الأصدقاء في الصالون حول نار متوقدة، قصّ عليهم بيروتو بسذاجة تفاصيل حادثته الغريبة، وكان مستمعوه قد بدؤوا يتضجرون من إقامتهم الرتيبة في الريف فاستثارتهم هذه المكيدة المتوافقة مع حياة الأقاليم، وانحاز كل منهم إلى جانب الراهب منتقداً تصرف العانس.

قالت السيدة دي ليستومير: «كيف! ألا ترى جلياً رغبة الأب تروبير في الحصول على شقتك؟» هنا يحق للمؤرخ أن يرسم بالقلم صورة لتلك السيدة، إنما مع قناعته بأن أولئك الذين يجهلون مبدأ سترن[1] في «**دلالة الاسم على المسمى**» ذاتهم لايمكنهم أن يلفظوا هذه الكلمات الثلاثة: السيدة دي ليستومير دون أن يتصوروها نبيلة، فاضلة، تلطّف صرامة التدين بأناقة التقاليد الملكية والكلاسيكية العريقة، وبالتصرفات المهذبة، طيبة لكن في طبعها بعض قسوة، وفي صوتها خنة خفيفة، وهي تسمح لنفسهابقراءة **هيلويز الجديدة**[2]، والمسرحيات الكوميدية، كما أنها تعتمر شعراً مستعاراً[3].

قال السيد دي ليستومير وهو نقيب بحري جاء يقضي إجازته عندعمته: «يجب ألا يخضع الأب بيروتو لتلك العجوز المزعجة، وإذا كان الوكيل الأسقفي جسوراً واتبع نصائحي فسيحظى سريعاً براحة البال».

(١) سترن (١٧١٣-١٧٦٨): هو مؤلف تريسترام شاندي، والرحلة العاطفية، الكاتب الإنكليزي الأكثر حظوة في نيل إعجاب بلزاك، ودلالة الاسم على المسمى Cognométrie نظرية تعتبر أسماء العلم ذات دلالة على شخصية من يحملونها، ونحن نعلم أن اختيار اسم الشخصيات ذو أهمية كبيرة لدى بلزاك.

(٢) هيلويز الجديدة: روايةلجان جاك روسو ظهرت في العام ١٧٦١.

(٣) البارونة دي ليستومير في قصةكاهن تور هي مثيلة كونتة ليستومير ـ لاندون في رواية امرأة في الثلاثين في المرحلة التي لم يتبع فيها بلزاك ظهور الشخصيات.

أخيراً راح كل واحد يحلل تصرفات الآنسة غامار بحدة الذهن الخاصة بأبناء الأقاليم الذين لايمكن إنكار موهبتهم في تعرية الدوافع الأكثر خفاء للتصرفات البشرية.

قال أحد الملاكين القدماء الذين خبروا المنطقة: «إنكم لاتدركون باطن الأمر، فهناك شيء خطير لم أتمكن من تخمينه حتى الآن، فالأب تروبير أعمق من أن يكشف بسرعة، وصديقنا العزيز بيروتو مايزال في بدء متاعبه، فحتى لو تخلى عن شقته للأب تروبير، هل سينعم بالطمأنينة وهدوء البال؟ أشك في ذلك.

ثم التفت إلى الكاهن المندهش قائلاً: إذا كان كارون قد حضر ليسألك إن كنت راغباً في التخلي عن سكنك لدى الآنسة غامار، فهذا يعني دون شك أنّ الآنسةغامار تنوي طردك من منزلها. . والواقع أنك ستخرج شئت أم أبيت، فهذا النوع من الأشخاص لايجازف عبثاً، ولايتحرك إلا وهو واثق من النجاح».

لخّص هذا النبيل العجوز المسمى السيد دي بوربون كل أفكار المقاطعات بذات الدقة التي لخص بها فولتير روح عصره[1]. هذا العجوز المعروق النحيل يعلن في كسائه عن كل مبالاة المالك المقدر بقيمة ملكيته في المنطقة، وسحنته الملفوحة بشمس تورين أكثر تعبيراً عن الدهاء منها عن الذكاء، وهو معتاد على وزن كلماته، وتنسيق فعالياته، ويخفي احترازه العميق تحت بساطة خادعة؛ وهكذا فأقل مراقبة لديه كافية ليلحظ، على نسق فلاح نورماندي، ميزة السبق دائماً في كل مشاريعه، وهو متفوق في تخمير نبيذه، هذا العلم الأثير على نفوس أهل تورين، وقد عرف كيف يوسع مساحة مروج إحدى ملكياته على حساب انحسار[2] ضفة اللوار متجنباً

---

(١) السيد دي بوربون: «أسطورة» بالمعنى الذي يعطيه بالانش (١٧٧٦-١٨٤٧) ومن بعده بلزاك لهذه الكلمة (رجل يلخص مظهر مجتمع أو عصر) (انظر بهذا الخصوص خاتمة رواية العانس، والدراسة الموضوعة لها).

(٢) انحسار ضفة النهر: هو تراجع النهر عن شريط من الأرض في إحدى ضفتيه نتيجة تعمق مجراه أو طغيانه على الضفة الأخرى، وهذا الشريط المغمور باللحقيات الخصبة يعتبر من أملاك الدولة لكن مالكي الأرض المجاورة له يمكنهم بالاستغلال التدريجي له ضمه إلى أملاكهم وهذا مافعله دي بوربون.

أي نزاع قضائي مع الدولة؛ وهذا التصرف البارع وجه الأنظار إليه كرجل موهوب؛ فإن استظرفت حديث السيد دي بوربون، وطلبت من أحد سكان تورين معلومات عن سيرة حياته أجابك «أوه! إنه عجوز ماكر!». وهذا هو القول الشائع لجميع حساده، وهم كثر. ففي تورين يشكل الحسد كما في معظم المقاطعات أساس اللغة.

سببت ملاحظة السيد دي بوربون للحظة صمتاً بدا فيه الأشخاص المشكلون لتلك المجموعة الصغيرة منصرفين إلى إمعان الفكر؛ وفي أثناء ذلك أعلن عن حضور الآنسة سلمون دي ڤيلنوا منقادة بالرغبة في أن تكون مفيدة لبيروتو آتية من تور، وماحملته من أنباء غيّر بشكل كامل وجه القضية، ففي لحظة وصولها كان كل من الحاضرين باستثناء ملاك الأراضي ينصح بيروتو بمجابهة تروبير وغامار تحت رعاية النخبة الارستقراطية الواجب حمايتها له.

قالت الآنسة سلمون: «إن الوكيل العام البطريركي، المكلف بشؤون رجال الكهنوت في تور قد حل به المرض، وأناب عنه البطريرك الأب تروبير فتسمية الكهنة القانونيين تعود إليه الآن كلياً؛ والحال أن الأب بوارل تحدث البارحة لدى الآنسة دي لابلوتيير عما يسبب الأب بيروتو من مضايقات للآنسة غامار بطريقة أراد فيها أن يبرر نقمتها على صديقنا الراهب الطيب، ومما قاله: «كان الأب شابلو ضرورياً جداً للأب بيروتو، وتبين منذموت هذا الكاهن القانوني الطيب أن.. لو تعلمون كم سرد من افتراضات وتمائم؟».

قال السيد دي بوربون بنبرة ارتسامية: سيغدو تروبير وكيلاً بطريركياً عاماً.

وقالت السيدة دي ليستومير موجهة كلامها إلى الأب بيروتو: لنرَ، ماذا تفضل: أن تسمى كاهناً قانونياً، أو أن تبقى لدى الآنسة غامار؟.

بدرت من أكثر الحاضرين صيحة عامة: القونية أفضل.

تابعت السيدة دي ليستومير: يجب إذاً الإذعان للأب تروبير والآنسة غامار، ألم يعلنا بشكل غير مباشر، وبزيارة المحامي كارون أنك إن رضيت التنازل عن مشاطرتهما المسكن فستتم تسميتك إلى هذه الرتبة؟ تنازل، تنازل!».

أشاد كل من الحاضرين بدهاء وحكمة السيدة دي ليستومير، باستثناء ابن أخ زوجها البارون دي ليستومير الذي قال بلهجة فكهة: «وددت لو أشهد معركة بين غامار وبيروتو» لكن، لسوء حظ الوكيل، لم تكن القوى متساوية بين أفراد هذه النخبة والآنسة غامار المدعومة بالأب تروبير. وحلت سريعاًاللحظة التي وجب أن يتجلى فيها الصراع بصراحة ويزداد اتساعاً متخذاً أبعاداً هائلة. وبناء على رأي السيدة دي ليستومير ومعظم مؤيديها الذين استهوتهم هذه القضية المحدثة لرجّة في فراغ حياتهم الإقليمية، أرسل أحد الخدم لاستدعاء السيد كارون الذي حضر بسرعة غريبة سببت الروع للسيد دي بوربون، فارتأى هذا المماثل للقائد فابيوس[1] إنما بمبذل بعد ملاحظة تداخل المنافسة التورينية في تعقيد القضية «أن يؤجل كل حسم لزيادة البحث». وقد أراد بذلك أن ينبه بيروتو إلى مخاطر وضعه، لكن حكمة العجوز الماكر لم تكن متوافقة مع حماس اللحظة الحاضرة فلم تحظ بالموافقة. ولم يدم اجتماع المحامي ببيروتو إلا وقتاً قصيراً جداً عاد هذا بعدها إلى صحبه مذعوراً وهو يقول: «إنه يطلب مني تصريحاً خطياً بالإخلاء»!.

سأل النقيب البحري: ماهي هذه الكلمة الكريهة؟.

وهتفت السيدة دي ليستومير: مامعنى هذا؟.

ردّ السيد دي بوربون وهو يأخذ حفنة من سعوط: هذا يعني ببساطة أن على الراهب أن يسجّل أنه يتخلى بملء إرادته عن السكن في منزل الآنسة غامار.

قالت السيدة دي ليستومير موجهة كلامها لبيروتو: ليس إلا هذا فقط؟ وقع إذاً! إن كنت قد عزمت بجد أن تخرج من منزلها، فليس هناك أي محذور من التصريح بأن هذا يتم بملء إرادتك.

---

(١) فابيوس (مكسيموس فريكوزوس) الملقب بالمؤجل بسبب الحذر الذي أبداه في الصراع مع هانيبعل متجنباً الدخول معه في مواجهة مما أخر تقدمه. رجل دولة روماني (٢٧٥-٢٠٣ ق.م). سمي قنصلاً خمس مرات ودكتاتوراً بعد هزيمة تراسيمانية (٢١٧ ق.م) استطاع إعاقة تقدم هانيبعل نحو روما لكنه لم يستطع منع القناصل من خوض معركة كان (٢١٦ ق.م) التي هزمت روما فيها أيضاً لكن استدعاء هانيبعل إلى قرطاجنة في العام ٢٠٣ ق.م انقذها منه.

ملء إرادة بيروتو!.

قال السيد دي بوربون وهو يغلق علبة سعوطه بحركة جافة يصعب تفسير دلالتها، إذ أنها لغة كاملة: «هذا صحيح» ثم أضاف وهو يضع علبة السعوط على حافة المدفأة محاولاً إثارة ذعر بيروتو: «لكن، من الخطر، على الدوام، إعطاء تصريح خطي».

وجد بيروتو نفسه شديد الخبل لانعكاس كل أفكاره، وتسارع الأحداث التي فاجأته دون دفاع، والبساطة التي يعالج فيها أصدقاؤه القضايا الأكثر حميمية من حياته المنزوية، بحيث بقي ساكناً كأنه تائه على سطح القمر، لايفكر بشيء، لكنه يصغي ويحاول فهم الكلمات المتلاحقة السريعة التي يسرف فيها جميع الناس. وتناول التصريح الذي أعده السيد كارون وقرأه؛ وكأن النص القانوني للمحامي هو محور اهتمامه، لكن حركته كانت آلية، ووقع تلك الوثيقة التي يعترف فيها بتخليه بكامل إرادته عن السكن لدى الآنسة غامار، وكذلك عن تناول الطعام لديها وفقاً للاتفاق المعقود بينهما. بعد أن انتهى الوكيل الأسقفي من تسطير توقيعه على هذا التصريح استعاده السيد كارون وسأله عن المكان الذي يجب على زبونته أن تودع له فيه الأشياء التي تخصه، فدل الأب بيروتو على منزل السيدة دي ليستومير التي أبدت بإشارة منها موافقتها على استقبال الراهب لعدةأيام دون أن يخالجها الشك في أنه سيسمى سريعاً كاهناً قانونياً. وطلب الملاك العجوز أن يطلع على هذا التصريح بالموافقة على الإخلاء فناوله إياه السيد كارون؛ وبعدأن قرأه توجه إلى الوكيل الأسقفي قائلاً: «إيه! هذا النص يعني أن بينك وبين الآنسة غامار اتفاقاً مكتوباً؟ فأين هو؟ وماهو مضمونه؟

أجاب بيروتو: إن الاتفاق المحرر موجود في شقتي.

سأل الملاك المحامي: هل تعلم مضمونه؟.

رد السيد كارون وهو يمد يده ليستعيد تلك الورقة المشؤومة: كلا، ياسيدي».

قال الملاك العجوز في نفسه: «آه! أيها المحامي، إنك تعرف تماماً كل مايتضمنه عقد هذا الاتفاق، لكن لم يدفع لك لتصرح لنا بمضمونه».

ورد السيد دي بوربون ورقة التصريح الموقع للمحامي.

هتف بيروتو: «أين سأضع كل أثاث شقتي؟ وكتبي، ومكتبتي الجميلة، ولوحاتي الساحرة، وصالوني الأحمر، أخيراً كل متاعي؟!!».

كان في قنوط الرجل المسكين، الذي بدا مقتلعاً من جذوره، شيء في منتهى السذاجة، كان يصور جيداً نقاء طبائعه، وجهله بأشياء العالم؛ حتى أن السيدة دي ليستومير والآنسةسلمون قالتا له لتعزيته متخذتين اللهجة التي تستخدمها الأمهات عندما يعدن بلعبة لأطفالهن:

«لاتقلق من أجل هذه الأشياء التافهة! سنجد لك بيتاً أقل برودة، وأقل قتامة من بيت الآنسة غامار، وإذا لم نجد لك مسكناً يعجبك، فستنزلك إحدانا في ضيافتها. هيا، فلنجر جولة في لعبة طاولة الزهر. وغداً ستذهب لرؤية الأب تروبير وتطلب دعمه، وسترى كم سيرحب بك».

إن الأشخاص الضعفاء يسكن روعهم بذات السهولة التي يذعرون بها. وهكذا فبيروتو المسكين المنبهر باحتمال إقامته لدى السيدة دي ليستومير، نسي المصيبة التي استهلكت، دون أمل بالعودة، السعادة التي رغب بها طويلاً، والتي تنعم بها بعذوبة لبعض الوقت. لكنه قبل أن ينام مساءً، وبألم رجل رأى في ارتباك الانتقال والإئتلاف مع عادات جديدة نهاية العالم، راح يكد ذهنه في التفكير بمكان يستطيع أن يجد فيه لمكتبته موقعاً ملائماً كملاءمة رواقه لها. وبتصوره كتبه مبعثرة، وأثاثه مفككاً، وترتيب بيته في فوضى، تساءل ألف مرة لماذا مرت السنةالأولى لدى السيدةغامار بكل هذه العذوبة؟، وماذا حدث لتكون السنةالثانية بمثل هذه القسوة؟ وبدت له قضيته على الدوام، كبئر دون قعر يهوي فيه عقله ويضل. ولم تبدُ له القونيةتعويضاً كافياً عن كل هذه المصائب، ومثلت حياته في ناظره كجورب أفلتت منه قطبة، فكرت كل اللحمة. لقد بقيت له الآنسة سلمون، لكنه بضياع أوهامه السابقة، لم يجرؤ وهو الكاهن المسكين على الوثوق بصداقة فتية.

في مدينة **العوانس المكتئبة**[١]، تصادف الكثيرات، وخاصة في فرنسا، ممن تعتبر حياتهن تضحيةتقدم بنبل كل يوم من أجل عواطف نبيلة[٢]. بعضهن يبقين مخلصات باعتزاز لقلب اختطفه الموت بسرعة: إنهن شهيدات الحب، وهن يجدن سرّ كيان المرأة في الروح. وأخريات يمتثلن لإباء العائلة، التي يعيب انحطاطها، فيضحين من أجل مستقبل أخ، أو أبناء أخ يتامى: وهؤلاء يتخلقن بأخلاق الأمهات مع بقائهن عذارى. هؤلاء العوانس يصلن إلى أعلى درجات السمو في جنسهن بتكريسهن كل العواطف الأنثوية للتعبد للبؤس. إنهن يسمون بصورة المرأة بتخليهن عن مكافآت قدرهن وقبولهن مشقاته. إنهن يعشن محاطات بسمو تضحيتهن، فيحني الرجال بكل إجلال الرأس أمام قسماتهن الذابلة؛ والآنسة سومبروي[٣] لم تكن امرأة ولافتاة، إنما هي دائماً قصيدة حية، وستبقى كذلك. والآنسة سلمون تنتمي إلى هذه المخلوقات البطلة؛ فتضحيتها كانت سامية بورع لأنها لم تكن تأمل بأي غبطةبعد أن عانت العذاب كل يوم. جميلة وشابة، محبوبة ومحبة، وفقد خطيبها العقل، وكرست خمس سنوات من حياتها بالشجاعة التي يمنحها الحب لسعادة هذا البائس الميكانيكية الذي اقترن مع جنونه إلى درجة لم تحسبه فيها مجنوناً البتة[٤]. وكانت فوق كل ذلك، إنسانة بسيطة في تصرفاتها، صريحة في عباراتها لاتنقص محياها الشاحب علائم الشخصيةالمميزة رغم انسجام قسماتها، لاتتحدث أبداً عن أحداث حياتها؛ إنما تفلت منها أحياناً ارتعاشات مفاجئة عند سماع نبأ مروع أو حزين، مما يكشف فيها عن المزايا الجميلة التي تنميها الآلام الكبرى. جاءت وسكنت تور بعد أن فقدت رفيق حياتها؛ ولم

---

(١) المدينة المكتئبة Citta Dolente: هي الاسم المكتوب على باب الجحيم في النشيد الثالث من الملهاة الإلهية لدانتي، واتخذتمثالاً لكل مجتمع شقاء وخاصةفي التعبير الأدبي.

(٢) مثال أرماند دسكرنيون في رواية حجرة العاديات القديمة Cabinet des Antiques.

(٣) الآنسة دي سومبروي (١٧٦٧-١٨٢٣) بطلة الحب والحنو البنوي. أنقذت أباها من جلادي المحكمة الثورية، وزعم أنها ارتضت أن تشرب كأساً من الدم قدمها لها الجلادون مقابل العفو عنه.

(٤) الآنسة سلمون حبيبة وخطيبة لويس لامبر. لكن الرواية التي تحمل هذا الاسم لم تكتب إلا بعد ذلك بشهرين.

تقدر فيها القدر الذي تستحق؛ لكنها اعتبرت **مخلوقة طيبة**، وقامت بأعمال إحسان كثيرة؛ وتعلّقت عن ميل بالناس الضعفاء، وعلى هذا الأساس حظي الوكيل الأسقفي المسكين، بصورة طبيعية، باهتمام عميق..

صحبت الآنسة دي ڤيلنوا، التي تذهب إلى المدينة منذ الصباح، الأب بيروتو، وأنزلته على الضفة المقابلة للكاتدرائية، وتركته يأخذ طريقه إلى الرواق حيث تخامره رغبة عارمة للوصول سريعاً لإنقاذ رتبة الكاهن القانوني على الأقل من الغرق، والإشراف على نقل أثاثه، وقرع الجرس وهو يشعر بخفقات قلب عنيفة وهو يقف على عتبة باب ذلك المنزل الذي اعتاد أن يتردد عليه منذ أربعة عشر عاماً، وسكنه لعامين، ونفي عنه إلى الأبد بعد أن كان يحلم بأن يموت فيه بسلام على شاكلة صديقه الأب شابلو.

بدت ماريان مندهشة لرؤية الوكيل، فقال لها إنه آت للتحدث مع الأب تروبير، وتوجه إلى الطابق الأرضي حيث يسكن الكاهن القانوني، لكن ماريان هتفت به: «إن الأب تروبير لم يعد هناك يا سيدي الوكيل، فقد انتقل إلى شقتك السابقة» هذه الكلمات سببت رعشة مروعة للوكيل، الذي أدرك أخيراً طبع تروبير، وعمق انتقام خطط له بدقة، عندما وجده مستقراً في مكتبة شابلو، جالساً على الكرسي الوثير القوطي الجميل العائد لشابلو، وقد رقد، على الأرجح، في سرير شابلو، مستمتعاً بأثاث شابلو، ساكناً في قلب شابلو، معطلاً وصية شابلو، بحرمانه من الميراث صديق شابلو الذي منع عنه، مع استقراره لمدة طويلة لدى الآنسة غامار كل ترقي، وأغلق في وجهه صالونات تور. بأية ضربة عصا سحرية غدا هذا التحول؟ هل هذا لم يعد إذا ملك بيروتو؟ من المؤكد، برؤيته للسحنة المستهزئة التي كان يتأمل بها تروبير تلك المكتبة، حكم بيروتو المسكين أن الوكيل العام البطريركي المستقبلي واثق من امتلاكه أسلاب هذين اللذين كرههما بشدة:

شابلو كعدو، وبيروتو لأنه يتمثل فيه شابلو. وخالجت ألف فكرة، لهذا المظهر، قلب الرجل المسكين، وأغرقته في نوع من الكابوس، فبقي ساكناً كأنه قد سحر بعين تروبير وهو يثبت فيه نظرته.

قال بيروتو أخيراً: «لا أعتقد يا سيدي أنك تريد حرماني من الأشياء التي تخصني. وإذا كانت الآنسة غامار متلهفة لتوفير السكن الأفضل لك، فيجب أن تبدو منصفة بإتاحة الوقت لي للتعرف على كتبي ونقل أثاثي».

رد الأب تروبير ببرود دون أن يظهر على وجهه أي أثر للانفعال: سيدي، أنبأتني الآنسة غامار البارحة برحيلك، دون إعلامي حتى الآن عن سببه، واقتضت الضرورة أن تنقلني إلى هنا، لأن الأب بوارل قد سكن شقتي، وأنا لا أعلم إن كان الأثاث الموجود في هذه الشقة يعود للآنسة أم لا، لكن إن كان لك، فأنت تعلم حسن نيتها: فحياتها التقية ضمان لاستقامتها. أما أنا فإنك لاتجهل بساطة عاداتي، فقد نمت خمسةعشر عاماً في غرفة عارية، دون أن أعر انتباهاً للرطوبة التي كادت تفتك بي. ومع ذلك فإن أردت السكن مجدداً في هذه الشقة، فسأتخلى لك عنها بكل طيبة خاطر».

نسي بيروتو عند سماعه هذه الكلمات الرهيبةموضوع قوننته، وهبط بسرعة شاب ليقابل الآنسة غامار والتقى بها في أسفل السلم على العتبة العريضة المبلطة التي تصل بين جناحي البناء.

قال بعد أن حيّاها بسرعة ودون أن ينتبه للبسمة الهازئة بحدة المرتسمةعلى شفتيها، . ولا للوميض الغريب المشع من عينيها وهما تبرقان كعيني النمور: «يا آنسة، لا أجد تفسيراً لعدم انتظارك نقل المتاع الذي يخصني قبل أن. . .

قالت مقاطعة له: ماذا؟! ألم تنقل جميع أمتعتك إلى منزل السيدة دي ليستومير؟

ـ ولكن أثاثي؟ .

ردت العانس بلهجة لو أمكن تسجيلها موسيقياً لتبين فيها المدى الذي يمكن للحقد فيه أن يضع تفردات في إبراز كل كلمة: ألم تقرأ إذاً عقدك؟»

وبدت الآنسة غامار تتسامق طولاً، وازداد بريق عينيها، وتهلل وجهها واختلج كل كيانها برعشة لذّة. وفتح الأب تروبير نافذة ليقرأ تحت نور أكثر جلاء في أحد المجلدات، وبقي بيروتو كالمصعوق؛ ورددت الآنسة غامار في أذنيه بصوت مجلجل كنفير بوق العبارات التالية: «ألم نتفق، في الحال التي تخرج فيها من منزلي، على أن أثاثك يعود لي كتعويض عن فروق النصاب القائمة بين تعويض معيشتك والتعويض الذي كان يسدده الأب المحترم شابلو؟ والحال إن الأب بوارل سمي الآن كاهناً قانونياً. . . »

عند سماع هذه الكلمات الأخيرة، انحنى بيروتو بوهَن، وكأنه يستأذن العانس بالخروج وانطلق مسرعاً، فقد خشي إن استمر مدة أطول أن يغمى عليه فيزيد من زهو انتصار عدوين بمثل هذا الحقد. ومشى مترنحاً كرجل ثمل إلى أن وصل إلى منزل السيدة دي ليستومير حيث وجد في قبو بياضاته، وثيابه، وأوراقه مجمعة في صندوق. عند رؤية شتات متاعه، جلس الكاهن التعس، وغطى وجهه بيديه ليحجب عن الخدم منظر دموعه المنهمرة. فالأب بوارل سمي كاهناً قانونياً! وهو قد غدا دون سكن، ودون مستقبل مرجو، ودون أثاث!.

لحسن الحظ مرت الآنسة سلمون في عربة استوقفها بواب المنزل باشارة منه إلى الحوذي، بعدأن لاحظ قنوط الرجل المسكين، وبعدبضع كلمات تبادلهامع الفتاة العانس، أقلت الصديقةالمخلصة صديقها الوكيل الأسقفي وهو نصف ميت، لم يستطع أن يتفوه إلا ببضع كلمات غير منسجمة، وذعرت الآنسةسلمون من التشوش المؤقت لرأس ضعيف سابقاً فأقلته في الحال إلى دارة القبرة معتبرة بداية هذا الاختلال العقلي عائدة إلى ماأحدثته عليه تسميةالأب بوارل كاهناً قانونياً. وكانت تجهل وجود عقد بين الوكيل والآنسةغامار لسبب وجيه هو أن بيروتو نفسه

كان يجهل مضمونه. ولما كان من الطبيعي أن يختلط الهزل أحياناً بالأشياء الأكثر إثارة للشفقة فإن أجوبة بيروتو الغريبة دفعت الآنسةسلمون إلى الابتسام تقريباً.

قال: «كان شابلو على حق. إنه غول».

سألته: من؟

- شابلو، لقد انتزع مني كل شيء.

- تعني بوارل إذاً؟.

- كلا، تروبير.

أخيراً وصلا إلى القبرة حيث أحاط الأصدقاء الوكيل الأسقفي بوسائل العناية والعلاج اللازمة، فهدأ عند المساء، وأمكنهم أن يحصلوا منه على نبأ ماحدث له ذلك الصباح. وطلب الملّاك الرابط الجأش أن يرى بالطبع العقد الذي بدا له منذ مساء الأمس بأنه يتضمن مفتاح اللغز، وسحب بيروتو من جيبه الورقة المشؤومة ذات الطابع وناولهاإلى السيد دي بوربون الذي قرأها بسرعة ووصل إلى الشرط المصاغ بالشكل التالي:

«لما كان يوجد فرق ثمانمائة فرنك سنوياً بين النفقة التي كان يسددها المرحوم السيد شابلو، وتلك التي وافقت المدعوة صوفي غامار أن تأخذ لديهابالشروط الموضحة أعلاه المسمى فرنسوا بيروتو؛ ونظراً لأن الموقع فرنسوا بيروتو يعترف بأكثر مما يكفي، أنه غير قادر على أن يدفع خلال عدة سنوات النفقة التي اعتاد تسديدها المقيمون لدى الآنسة غامار، وخاصة الأب تروبير؛ أخيراً، مع مراعاة مختلف السلف التي قدمتها المدعوة صوفي غامار الموقعة، فإن المسمى بيروتو يتعهد بأن يترك لها بمثابة تعويض الأثاث الذي يكون مالكاً له عند وفاته، أو عندما يغادر لأي سبب كان، بملء إرادته، وبعد أية فترة إقامة كانت، الأماكن المؤجرة له حالياً، ولا يعود مستفيداً من المزايا المندرجة في الالتزامات التي تعهدت الآنسة غامار بها نحوه مما هو مذكور أعلاه».

هتف الملاك: «سحقاً! أي شرط مكتوب بالخط العريض[1] وأي مخالب تسلحت بها المدعوة صوفي غامار.

لم يكن بيروتو المسكين يتصور، في عقله البريء كعقول الأطفال، أي سبب يمكن أن يبعده يوماً عن الآنسة غامار، وكان يحسب أنه سيموت في منزلها، فلم يتذكر مطلقاً هذا الشرط، الذي لم يناقش صيغته في السابق، وبدا له من المناسب، في رغبته الإقامة لدى تلك العانس، أن يوقع على كل الوثائق التي تقدم له. بدت هذه البراءة مدعاة للاحترام، كما بدا تصرف الآنسة غامار مثال القبح، ومصير هذا العجوز الستيني مما يُرثى له، وضعفه مدعاة للشفقة، حتى أن السيدة دي ليستومير في أول لحظة استنكار صرخت: «إنني سبب توقيعك على التصريح المرمد لك، وعليّ تعويض السعادة التي حرمتك منها.

قال نبيل عجوز: لكن التصريح يشكل خدعة[2] ويمكن الطعن به لدى القضاء..

وهتف البارون دي ليستومير: حسن، سيلجأ بيروتو للقضاء، فإن خسر في تور سيربح في أورليان، وإن خسر في أورليان سيربح في باريس.

علق السيد دي بوربون ببرود: إذا كان الأب بيروتو يريد إقامة دعوى، فإنني أنصحه بالاستقالة أولاً من الوكالة الأسقفية.

ردت السيدة دي ليستومير: سنستشير المحامين، وسنرفع دعوى إن لزم الأمر، لكن هذه القضية معيبة جداً للآنسة غامار، ويمكن أن تغدو ضارة جداً بالأب تروبير إذا لم نحصل على تسوية صلحية لها.

بعد مداولة مستفيضة، وعد كل من الحاضرين مساعدة الأب بيروتو في المعركة التي ستقوم بينه وبين جميع الموالين لخصميه. كان حدس أكيد، وشعور اقليمي

---

(١) يطلق هذا التعبير على الشرط الأكثر أهمية في عقد، وكان يؤشر تحته أو يكتب بخط غليظ دلالة على أهميته.

(٢) خدعة Dol: موافقة اعتمد الغش في الحصول عليها مما يمكن من الطعن بها أمام المحاكم وطلب إلغائها.

يتعذر تعريفه يدفع كل واحد ليقرن اسمي غامار وتروبير، ولكن لا أحد من الموجودين لدى السيد دي ليستومير باستثناء الماكر العجوز قد كوّن فكرة صحيحة تماماً عن أهمية مثل هذه المعركة. وجذب السيد دي بوربون الراهب المسكين إلى زاوية وقال له هامساً:

«من الأربعةعشر شخصاً الموجودين هنا لن يكون أحد منهم خلال خمسة عشر يوماً واقفاً إلى جانبك؛ فإن احتجت لطلب مساعدة فلن تجد على الأرجح، عندئذ، من يمتلك بعض الشجاعة ليدافع عنك سواي، لأنني أعرف المقاطعات، والرجال، والأشياء، وماهو فوق ذلك المصالح! لكن جميع أصدقائك، رغم نواياهم الطيبة، يوجهونك إلى طريق وعر، لاتستطيع الخروج منه، فاستمع إلى نصيحتي. إذا كنت تريد أن تعيش في سلام، فاترك وكالة أسقفية سان غاتيان، وغادر تور، لاتقل إلى أين أنت ذاهب؛ إنما ابحث لك عن خورنة منطقة نائية لايتمكن تروبير أن يصل إليك فيها.

صرخ الوكيل بذعر لايوصف: أأهجر تور؟».

كان هذا بالنسبة إليه نوعاً من الموت، أليس في ذلك اقتلاع لجميع الجذور التي ينغرز فيها ضمن المجتمع؟ إن العزاّب يستعيضون عن العواطف بالعادات؛ فإذا اقترن هذا النهج المعنوي، الذي يجعلهم على هامش الحياة، بدلاً من خوض غمارها، بطبع ضعيف يغدو للأشياء الخارجية سيطرة مدهشة عليهم. وهكذا غدا بيروتو أشبه بنبتة يخشى إن نقلت ضياع إثمارها البريء تماماً كالشجرة التي تحتاج في كل ساعة لذات النسغ، ولوجود أشعارها الماصة في ذات التربة؛ كان بيروتو يحتاج دائماً للتحرك في أبهاء كاتدرائية سان غاتيان، والتردد على الممر المشجر الذي اعتاد التنزه فيه، والتحول دون انقطاع في الشوارع التي يمر بها، والاستمرار في الذهاب إلى الصالونات الثلاثة حيث كان يقضي السهرة في جولة وست أو لعبة طاولة زهر.

رد السيد دي بوربون وهو ينظر إلى الراهب بنوع من الشفقة: «آه! أنا لم أقدر مدى تعلقك بهذه المدينة».

عرف جميع سكان مدينة تور سريعاً أن السيدة دي ليستومير، أرملة نائب قائد الحامية آوت الأب بيروتو وكيل سان غاتيان. هذه الواقعة التي ارتاب بها كثير من الناس حسمت بوضوح جميع التساؤلات، وحددت الفرقاء، وخاصة عندما كانت الانسة سلمون أول من تجرأ على التحدث عن خديعة ومقاضاة. وبزهو العوانس الحاذق، والتحمس الشخصي المميز لهن، وجدت الآنسةغامار نفسها مهانة بالموقف الذي اتخذته السيدة دي ليستومير، فالبارونة سيدة من نخبة المجتمع، أنيقة في طبائعها، لايتطرق الشك لحسن ذوقها، وتصرفاتها المهذبة، وورعها. وقد فندت بإيوائها بيروتو بشكل قاطع جميع مزاعم الآنسة غامار، ووجهت النقد بشكل غير مباشر لسلوكها، وبدت موافقة لشكوى الوكيل ضد مضيفته السابقة.

من الضروري لاستيعاب هذه القصة، أن نشرح هنا كل ماتمنحه الفطنة وروح التحليل، اللتان تعالج بهما النسوةالعجائز تصرفات الآخرين، من قوة للآنسة غامار، وماهي دعائم حزبها. كانت تقضي سهراتها يرافقها الأب الصامت تروبير في أربعة أو خمسةبيوت يجتمع فيها نحو اثني عشر شخصاً يربطهم تماثل في الذوق وتشابه في الوضع الاجتماعي. هم: عجوزان يتبنيان أهواء وثرثرات خادمتيهما؛ وخمس أوست عوانس يقضين أيامهن في غربلة الكلمات، وتقصي مساعي جيرانهن والأشخاص الأرفع أو الأدنى منهن في السويةالاجتماعية، وأخيراً عدة نساء متقدمات في العمر، منشغلات حصراً في تقطير النمائم، ومسك سجلات صحيحة لتدوين الحظوظ، ومراقبة تصرفات الآخرين: وهن يتكهن بالزيجات وينتقدن سلوك صديقاتهن بذات الجدة التي يستنكرن بهاتصرفات عدواتهن. هؤلاء الأشخاص يسكنون جميعاً المدينة، بطريقة تدفع إلى تصور عمل الأوعية الشعرية في نبتة، فهم يتتبعون بظمأ ورقة للندى، الأخبار، وأسرار كل عائلة، لامتصاصها ونقلها آلياً إلى الأب تروبير، كما تنقل الأوراق للساق الطراوة التي امتصتها. إذاً فخلال كل أمسية من الأسبوع، تنطلق الورعات من هؤلاء

الأشخاص مستثارات بهذه الحاجة للإنفعال الموجودة لدى جميع الناس، لتقديم عرض شامل ودقيق عن الوضع في المدينة بفطن جديرة بمجلس العشرة[1]؛ ويقمن بدور الشرطة مسلحات بهذا النوع من التجسس الأكيد الذي تولده الأهواء، وعندما يخمن السبب الخفي لحدث، يدفعهن حب الذات إلى تملك حكمة مجلسهن الأعلى لنشر نغمة الثرثرة المميزة في مناطقهن الخاصة. فهذه الجمعية البطّالة والفعّالة، غير المنظورة والناظرة لكل شيء، الخرساء والناطقة دون انقطاع، تمتلك عندئذ تأثيراً تجعله عدم أهليتها قليل الضرر ظاهرياً، لكنه يغدو رهيباً عندما تحركه مصلحة رئيسة. ولكن مضى وقت طويل لم يظهر فيه، عبر أجواء وجودهن حدث بمثل الخطورة، والأهميةالشاملة لكل منهن كصراع بيروتو مدعوماًبالسيدة دي ليستومير ضد الأب تروبير والآنسة غامار. والواقع أن الصالونات الثلاثة للسيدات دي ليستومير، ومرلن دي لابلوتيير، ودي فيلنوا اعتبرت عدوة من قبل أولئك الذين تزورهم الآنسة غامار؛ان في قلب هذا النزاع حس التضامن وكل ازدهاءاته. إنه صراع الشعب ومجلس الشيوخ الروماني في كومة خلد(*)، أو هي العاصفة في كأس ماء، كما قال مونتسكيو متحدثاً عن جمهوريةسان مارين[2] التي لاتدوم الوظائف فيها أكثر من يوم واحد، مادام من السهل اغتصاب السلطة. لكن هذه العاصفة تنشر مع ذلك في النفوس مايلزم من الأهواء لتوجيه المصالح الاجتماعية الكبرى. أليس من الخطأ الاعتقاد أن الزمن ليس سريعاً إلا بالنسبة للقلوب المفعمة بمشاريع كبرى تجعلها تغلي وتعكر عليها حياتها؟ فساعات الأب تروبير كانت تمر جياشة، وتهرب مثقلة بأفكار قلقة، ومحددة

---

(١) مجلس العشرة: محكمة سرية لجمهورية البندقية، نشأت في الأصل لمدة عشرة أيام، لكنها منحت نفسها استمراراً دائماً، وركزت فيها جميع السلطات وألحقت بهاشرطة رهيبة شجعت الوشايات وعممت الإرهاب وعدم الثقة.

(٢) جمهورية سان مارين (أو سان مارينو) جمهورية صغيرة بمساحة ١٦ كم٢، كان عدد سكانها ١٨٠٠٠ نسمةتقع إلى الشرق من فلورنسة، وعاصمتها سان مارينو التي أسسها الناسك الذي يحمل ذات الاسم في القرن الرابع وغدت مستقلة منذ القرن التاسع، واعتبرت جمهورية في القرن الحادي عشر بإدارة مجلس كبير ورئيسين وصيين.

(*) كومة خلد: كومة تراب يكوّمها حيوان الخلد عندما يحفر جحره.

بخيبات وآمال بمثل عمق الساعات القاسية للطموح والمقامر والعاشق. إن الله وحده يعلم سر الطاقة التي نصرفها من أجل الانتصارات المتحققة خفية على البشر، والأشياء، وحتى على أنفسنا. وإذا كنا لانعرف دائماً إلى أين نحن سائرون، فإننا نعرف جيداً مشقات السفر. ولكن إن جاز للمؤرخ أن يترك المأساة التي يقصها، ليتناول للحظة دور الناقد، وإذا حثكم على إلقاء نظرةعلى وجود هؤلاء العوانس والكاهنين، للبحث عن سبب البؤس الذي يفسدهم في الصميم، فذلك ليبرهن لكم على الأرجح، أن من الضروري للإنسان الشعور ببعض الأهواء، لينمي في ذاته بعض المزايا التي تمنح حياته النبل وتوسع فيها الحلقة لتشمل جميع المخلوقات وتخفف من الأنانية الطبيعية.

عادت السيدة دي ليستومير إلى المدينة دون أن تدري أن عدداً من أصدقائها اضطروا منذ خمسة أو ستة أيام لدحض شائعة سرت عنها، رغم أنها ستقابلها بالضحك لو علمت بها، وهي تفترض أن مودتها لابن أخ زوجها تعود لأسباب شبه جنائية. وعند عودتها قادت الأب بيروتو إلى محاميها الذي لم تبدُ له القضية سهلة. وكان أصدقاء الوكيل، المتحمسون بالشعور بعدالة دعوة شرعية، أو المتكاسلون عن قضية غير شخصية، قد أجلوا بداية إثارتها إلى اليوم الذي سيعودون فيه إلى تور؛ وبذلك تمكن أصدقاء الآنسة غامار من أخذ زمام المبادرة، وعرفوا كيف يبثون أنباء غير ملائمة للأب بيروتو. وهكذا فرجل القانون الذي تتألف زبائنه حصراً من جماعة من أتقياء المدينة أدهش السيدة دي ليستومير بنصحه لها بعدم التورط في مثل هذه القضية، وختم مداولته بالقول: إنه لن يتوكل بها. لأن الآنسة غامار، وفقاً لنص العقد، على حق قانونياً، وكذلك من ناحية النظرة المنصفة، أي خارج المقاضاة بينما يظهر الأب بيروتو في نظر المحكمة ونظر الناس الشرفاء فاقداً لمزايا المسالمة والمصالحة والحلم التي يفترض تحليه به؛ بينما اشتهر عن الآنسة غامار أنها شخصية لطيفة، طيبة المعشر، تفضلت على بيروتو بإقراضه المال اللازم لتسديد الرسوم المترتبة عليه من جراء وصية المرحوم شابلو دون أن تطلب منه إيصالاً، كما أن بيروتو ليس في سن أو طبع من يوقع عقداً دون أن يعرف مضمونه، أو يقدر

أهميته، وأنه إن كان قد ترك منزل الآنسة غامار بعد سنتين من سكناه لديها بينما استمر صديقه شابلو نزيلاً عندها لمدة اثنتي عشرة سنة، وتروبير لمدة خمس عشرة سنة، فذلك لأمر يخفيه، وبذلك سيُحكم في القضية كأنها تصرف نكران جميل إلخ. . وبعد أن أتاح المحامي لبيروتو المجال ليتقدم أولاً باتجاه سلم الخروج، توقف للحظة منفرداً بالسيدة دي ليستومير، وطلب منها حرصاً على راحة بالها ألا تتورط في هذه القضية.

لكن في المساء، لم يستطع الوكيل الأسقفي المسكين، المعاني كمحكوم بالموت في زنزانة من بيسيتر[1] ينتظر طعنه بالنقض، إلا أن يُطلع أصدقائه على نتائج زيارته في اللحظة التي اكتملت فيها الحلقة حول مدفأة السيدة دي ليستومير، قبل التفرق على موائد اللعب الخضراء.

هتف السيد دي بوربون: باستثناء محامي الليبراليين المرخص[2]، لا أعرف في تور، أي رجل مداعاة يرضى أن يكلف بهذه القضية، إلا بنية أن يجعلك تخسرها ولا أنصحك بالتورط فيها.

قال الضابط البحري: الواقع إن هذا قول مثبط للعزيمة، وأنا سأصحب الراهب إلى هذا المحامي. . .

قال السيد دي بوربون مقاطعاً: اذهبا بعد حلول الظلام.

ـ ولماذا؟.

ـ لأنني علمت أن الأب تروبير عيّن رسمياً وكيلاً بطريركياً عاماً مكان الوكيل السابق المتوفي ليلة ماقبل البارحة.

ـ إنني أزدري هذا الأب تروبير!»

---

(١) بيسيتر: محلة في ڤال دي مارن جنوب باريس أنشئ فيها ملجأ للعجائز والمختلين عقلياً، كما أنها احتوت على سجن حتى العام ١٨٣٦.

(٢) كان الليبراليون في تور آنذاك يتمثلون ببعض الارستقراطيين والصناعيين وبعض التجار والمصرفيين إنما دون تأثير سياسي لهم، وكان المحامي المرخص يحق له في المقاطعات المرافعة في قضايا مكلف بها.

للأسف، لم يلحظ البارون دي ليستومير، وهو رجل في السادسة والثلاثين من العمر، الإشارة الخفية من دي بوربون بالتحفظ في كلماته نظراً لوجود أحد مستشاري المحافظة من أصدقاء الأب تروبير[١]؛ وهكذا أضاف النقيب البحري: «نعم إن الأب تروبير رجل محتال. . .»

قال دي بوربون مقاطعاً: أوه! لماذا تشرك الأب تروبير في قضية هو غريب عنها كلياً؟ . . تابع البارون: لكن، ألا يستمتع حالياً بأثاث الأب بيروتو؟ إنني أتذكر زيارتي للأب شابلو، وقد لاحظت لديه لوحتين ثمينتين، يفترض أن قيمتهما لاتقل عن عشرة آلاف فرنك؟ . . . هل تعتقد أن الأب بيروتو كان ينوي التنازل، من أجل سنتين من السكن لدى هذه العانس عن عشرة آلاف فرنك، عدا عن أن المكتبة وقطع الأثاث الأخرى تساوي مثل هذا المبلغ تقريباً؟ . . .»

اتسعت حدقتا الأب بيروتو وهو يعلم أنه يمتلك مثل هذا المبلغ الهائل. وتابع البارون بحماس: «يا الله! إن السيد سالمون الخبير[٢] السابق في متحف باريس[٣] في زيارة هنا لحماته. وسأذهب إليه هذا المساء بالذات مع الأب بيروتو لأرجوه أن يقدر ثمن هاتين اللوحتين، ومن هناك سأرافق الوكيل إلى مكتب المحامي المرخص».

بعد يومين من تلك المحادثة، اتخذت القضية قوامها، وغدا محامي الليبراليين المرخص وكيلاً لبيروتو، لكنه لم يؤمله كثيراً بربحها. وتبنى الأشخاص المعارضون للحكومة، وأولئك المعروفون بعدم محبتهم للكهنة والدين، وهما شيئان يخلط بينهما الكثيرون، القضية؛ وراحت كل المدينة تتحدث عنها. وقدر خبير المتحف بأحد عشر ألف فرنك قيمة عذراء فالنتين ومسيح لبران، القطعتين المتميزتين بجمال رئيس. أما المكتبة والأثاث القوطي، فإن الذوق السائد في باريس

(١) كان لدوبو أيضاً مكانته في المحافظة.

(٢) آل سالمون المرتبطون بعلاقات مع آل سافتري وآل مارغون من العائلات المعروفة في تور، ومن أصدقاء ذوي بلزاك، ويرجح أن بلزاك تعرف على أحدهم وهو مايزال يافعاً في ساشيه.

(٣) هذه التسمية تعود على الأرجح إلى متحف اللوفر الذي تجنب تسميته خلال العهدين الثوري والامبراطوري بهذا الاسم تجنباً للإلتباس الممكن مع القصر الملكي السابق.

والمتزايد إعجاباً يوماً بعد يوم بهذا الطراز يعطيهما في الوقت الحاضر قيمة اثنى عشر ألف فرنك. أخيراً قدر الخبير، بعد التحقق قيمة الأثاث بكامله بعشرة آلاف إكو. وبديهي أن بيروتو لم يخطر على باله أن يمنح الآنسة غامار هذا المبلغ الضخم لقاء القليل من المال المدين لها به جراء فرق الأنصبة الموضح؛ وهذا مايتطلب، من الناحية القضائية، تعديلاً في شروط العقد، وإلا اعتبرت العانس متهمة باحتيال إداري.

شرع محامي الليبراليين المرخص في القضية بتوجيه إخطار إقامةدعوى[١]. ورغم الصيغة اللاذعة لهذه الوثيقة، المدعمةباستشهادات أحكام مطلقة، والمعززة بمواد من القانون الجزائي، والمنذرة بداهة بإدانة العانس، مما يجعلها تحفة في المنطق القضائي دفعت المعارضة بخبث إلى توزيع أربعين أو ثلاثين نسخةمنها في أنحاء المدينة.

بعد عدة أيام من بدء المخاصمة بين العانس وبيروتو، تلقى البارون دي ليستومير، المؤمل بأن يغدو قبطان حراقة[٢] في أول ترفيع أعلن عنه في وزارة البحرية، رسالة من أحد أصدقائه يعلن له فيها بأن النيةمتجهة في مكاتب الوزارة إلى وضعه في الاحتياط خارج الخدمة الفعلية؛ وأذهله هذا النبأ، فأسرع في الذهاب إلى باريس، وقابل في أول سهرة الوزير الذي أبدى له دهشته الشديدة، وراح يضحك عند إبداء البارون دي ليستومير مخاوفه له. وفي صباح اليوم التالي، ورغم كلمات الوزير المطمئنة، تحرى البارون اجراءات المكاتب، وبما يجري أحياناً من فضح أسرار يرتكبه بعض الرؤساء عادة خدمةلاصدقائهم، أطلعه أحد أمناء السر على ترتيب جاهز يؤكد الخبر المشؤوم، لكن مرض أحد المدراء أخر عرضه على الوزير. وأسرع البارون دي ليستومير إلى أحد أعمامه[٣]، وهو نائب يمكنه

---

(١) إعلام قضائي يوجهه محامي المدعي إلى الجهة المدعى عليها يبلغها فيهاالعزم على إقامة الدعوى رسمياً إن لم تزل أسباب شكوى المدعي ويبرر إخطاره بالحجج القانونية وهو يرسل بواسطة محضر محكمة إلى المدعو عليه.

(٢) هو منصب متوسط بين نقيب بحرية وقبطان عام.

(٣) هو أخ ثان لزوج السيدة دي ليستومير، وورد ذكره فيما بعد طبعةالعام١٨٣٥ من دراسة امرأة.

بهذه الصفة أن يرى الوزير في المجلس، ورجاه أن يسبر نوايا معاليه، لأن الأمر يتعلق بخسارة مستقبله، وراح ينتظر بقلق بالغ في عربة عمه انتهاء الجلسة.

وخرج النائب قبل اختتام الجلسة، وقال لابن أخيه في الطريق والعربة تتوجه بهما إلى الفندق: «يا للشيطان! كيف تتورط في معركة مع الكهنة؟ بدأ الوزير بإعلامي بأنك تتزعم الليبراليين في تور! إن لك آراء مكروهة، فأنت لاتتبع سياسة الحكومة، إلخ...» كانت عباراته ملغزة كأنه مايزال يتحدث في المجلس. عندئذ قلت له: «آه! لنكن صريحين في هذا الشأن!» فانتهى معاليه إلى الاعتراف لي بأنك على علاقة سيئة مع دار الإرشاد الكبرى[1]. وباختصار، عرفت باستقاء بعض المعلومات من زملائي أنك تكلمت باستخفاف عن أحد الكهنة المسمى تروبير، وهو وكيل عام بطريركي بسيط لكنه الشخصية الأكثر أهمية في المقاطعات حيث يمثل الكونغرغاسيون[2]. أجبت عنك مفنداً كلام الوزير الحجة بالحجة. أيها السيد ابن أخي، إن أردت شق طريق مستقبلك فلا تخلق لنفسك عداوة كهنوتية. اذهب سريعاً إلى تور، وصالح هذا الشيطان الوكيل البطريركي العام. واعلم أن الوكلاء العامين هم رجال يجب التعايش معهم دائماً بسلام. سحقاً! عندما نعمل جميعاً على تعزيز الدين فمن الحمق أن يبادر نقيب بحري يطمح ليكون قبطاناً إلى الاستخفاف بالكهنة. إذا لم تسو أمورك مع الأب تروبير، فلا تعتمد عليّ أبداً: سأتبرأ منك، فوزير الشؤون الكنسيّة حدثني الآن عن هذا الرجل كمطران في

---

(١) دار الإرشاد الكبرى: مؤسسة كهنوتية يرأسها رجل الدين المرشد للملك وقد ألغيت في زمن الثورة، ثم أعيدت في أيام نابوليون لتلغى مجدداً في العام ١٨٣٠، وكانت تتمتع بنفوذ كبير، وهي مستقلة عن الأبرشيات.

(٢) يشير بلزاك كإشارة ستندال إلى جمعية سرية مستقلة عن جمعية العذراء التقوية المسماة رسمياً كونغرغاسيون المشكلة عام ١٨٠١، لكنها حملت ذات الاسم وهي تضم جماعة من غلاة اليمين المتطرف مما ولد ردة فعل مضادة للكهنوت تجلت في العام ١٨٢٦ بنشر دراسات أحدثت ضجة كبيرة أعقبها في العام ١٨٣١ نهب بطريركية باريس.

مستقبل قريب؛ وإذا أبدى تروبير الكره لعائلتنا فيمكنه أن يعارض تسميتي عضواً في مجلس الأعيان القادم. أتدرك ذلك؟»

فسرت هذه الكلمات للنقيب البحري الاهتمامات الخفية لتروبير، الذي قال عنه بيروتو ببلاهة: «لا أعلم بماذا ينشغل طيلة لياليه».

كان الوضع المميز للكاهن القانوني تروبير وسط مجلس الشيوخ النسائي، الذي يقوم ببراعة بمهام الشرطة في المقاطعة، وقدرته الشخصية دافعين إلى اختيار الكونغرغاسيون له من بين جميع كهنة تور ليكون الحاكم الطاغية في تورين. فالبطريرك، وقائد الحامية، والمحافظ، والصغار والكبار كانوا تحت هيمنته الخفية. وسرعان ما أذعن البارون دي ليستومير لتوجيهات عمه وقال: «لا أريد أن أتلقى رشقة سهام كهنوتية جديدة تنفذ إلى **مصالحي الحيوية**».

بعد ثلاثة أيام من هذه المداولة الدبلوماسية بين العم وابن أخيه، عاد الضابط البحري فجأة بواسطة عربة البريد السريعة إلى تور، وكشف لامرأة عمه مساء يوم وصوله عن الأخطار التي تهدد أغلى آمال عائلة دي ليستومير إن استمر أحدهما أو الآخر في مساندة **هذا الأحمق بيروتو**. واستوقف البارون السيد دي بورون في اللحظةالتي أزمع فيها الملاك العجوز على تناول قبعته وعصاه ومغادرة صالون السيدة دي ليستومير بعد الانتهاء من جولة الويست. فرأي العجوز الماكر كان ضرورياً لتسليط الضوء على الورطةالتي وقع بها آل ليستومير، وهو لم يسع إلى التظاهر بالمغادرة مبكراً إلا ليُهمَس في أذنه: «ابق فنحن نريد التشاور معك» كانت عودة البارون السريعة، ومظهر رضاه الصامت مخالفين للارتباك الذي بدا على وجهه في بعض اللحظات، مما بين للسيد دي بورون إنما بشكل غامض بعض معالم الفشل الذي لقيه النقيب البحري في حملته ضد غامار وتروبير، ولم تبد عليه أية دهشةوهو يستمع إلى البارون يعلن سر السلطة الواسعة الممنوحة من الكونغرغاسيون للوكيل البطريركي العام.

قال: كنت أعرف ذلك.

هتفت البارونة: لكن لماذا لم تنبهنا إلى هذا الأمر؟

ـ أجاب دي بورون بحماس: سيدتي، تناسي أنني توقعت التأثير الخفي لهذا الكاهن لاتناسى أنكم عرفتم ذلك أيضاً. إذا كنا لانحتفظ بالسر فسنعتبر متواطئين معه؛ وسيشك بنا، ويحقد علينا. تشبهوا بي: تظاهروا بالغباء، لكن اعرفوا أين تضعون أقدامكم. لمحت لكم سابقاً بما فيه الكفاية، لكنكم لم تعوا أقوالي، ولا أريد أن أخاطر بنفسي.

قال البارون: أي موقف يجب علينا أن نتخذه الآن؟»

لم يكن في التخلي عن بيروتو أيّة مشكلة، وكان هذا هوالشرط الأول المضمر من قبل المتداولين الثلاثة.

رد دي بوربون: «قاتل وأنت منسحب تحافظ على كرامتك في الحرب. كان هذا دائماً هو التصرف الصحيح لأكثر القادة مهارة. انثن أمام تروبير، فإن كان حقده أقل شدة من زهوه جعل منك حليفاً له، أما إن أفرطت في الانثناء فسيدوس على بطنك. إذ قال بوالو[1]:

الأجلد هدم كل شيء، فهله هي روح الكنيسة.

تظاهر بأنك تركت الخدمة، فتفلت منه يا سيدي البارون. تخلي عن بيروتو يا سيدتي، واسألي وأنت في البطريركية الأب تروبير إن كان يعرف لعبة الوست، وسيرد بنعم، وادعه آنذاك للعبة في هذا الصالون حيث يرغب بالمجيء إليه، وسيأتي بالتأكيد. إنك امرأة، وعليك أن توجهي هذا الكاهن لخدمة مصالحك. وعندما يغدو البارون قبطاناً، وعمه أحدأعيان فرنسة، وتروبير مطراناً، يمكنك تسمية بيروتو بكل ارتياح كاهناً قانونياً. ولكن حتى ذلك الوقت انثني، إنما انثني برقة مبطنة بالتهديد؛ فعائلتك يمكنها أن تقدم دعماً لتروبير بقدر ماسيعطيها وهكذا يمكنكم التفاهم بشكل رائع. مع ذلك تقدم أيها البحار ومنظار المراقبة في يدك! .

(١) بوالو (نيكولا) (١٦٣٦-١٧١١): مؤسس الكلاسيكية الفرنسية، وبيت الشعر المذكور من كتاب المقرأ Le Lutrin: النشيد الأول.

هتفت البارونة: يا لبيروتو المسكين!.

عقب الملاّك وهو يخرج من الصالون: أوه! تخلصي منه سريعاً، فإن استحوذ أحد الليبراليين الماهرين على هذا الرأس الفارغ فسيسبب لكم المتاعب، وبعدكل حساب فإن المحاكم ستحكم لمصلحته، وسيخشى تروبير صدور هذا الحكم، مايزال يمكنه أن يغفر لكم إثارة المعركة لكنه سيغدو شرساً إن لحقت به الهزيمة. إني بلّغتكم.» وأغلق علبة عاطوسه، وانتعل حذاءه الواقي وخرج.

في صباح اليوم التالي، وبعد تناول طعام الإفطار، بقيت البارونة بمفردها مع الوكيل وقالت له بارتباك ظاهر: عزيزي السيد بيروتو. ستجد طلباتي جائرة، وغير منطقية، لكن يجب لمصلحتك ولمصلحتنا إخماد نزاعك مع الآنسة غامار بالتنازل عن ادعاءاتك عليها، ثم مغادرة منزلي» وشحب وجه الكاهن المسكين وهو يستمع إلى هذه الكلمات واستأنفت السيدة دي ليستومير: «إنني السبب البريء لبلواك، وأنا أعلم أن ابن أخ زوجي شجّعك على إقامة هذه الدعوى التي تسبب لك ولنا المصائب، إنما اصغ إليّ: وقصت عليه باختصار التعقد الواسع لتلك القضية، وشرحت له خطورة الاستمرار فيها. ومكّنتها تأملاتها أن تخمن خلال الليل السوابق المحتملة لحياة تروبير: وتمكنت عند ذاك دون أن تنخدع من أن تبرهن لبيروتو عن وجود تلك المؤامرة المعدة بمهارة بدافع الانتقام وشموله بها. وكشفت له عن قدرة خصمه الكبيرة، وماتتضمنه نفسه من حقد، مبينة له أسبابه، فقد تقلب في الشقاء لمدة اثنتي عشر سنة أمام شابلو، متمنياً لو يفترس شابلو، فهو ينتقم من شابلو الآن باضطهاد صديقه.

ضم بيروتو الساذج يديه كأنه يريد أن يصلي، وبكى حزناً لمظهر الأهوال البشرية التي لم تشتبه بها أبداً روحه البريئة. كان يستمع مذعوراً، كأنه على حافة لجة خطرة، إلى كلمات المحسنةإليه، وعيناه شاخصتان رطبتان إنما دون أن تعبرا عن أية فكرة.

قالت له أخيراً منهية كلامها: إنني أدرك كل ما يتضمنه التخلي عنك من سوء، لكن يا عزيزي الكاهن، إن واجبات العائلة أولى بالتفضيل من تلك العائدة للصداقة. فاستسلم لهذه العاصفة كما استسلمت، وسأعبر لك عن كل عرفاني بالجميل. لن أحدثك عن مصالحك، فسأتكفل بها، لاتقلق ولاتغتم لشؤون حياتك، فبواسطة دي بوربون الذي يعرف كيف ينقذ المظاهر، سأعمل على ألا ينقصك شيء. يا صديقي، اعطني حق خيانتك وسأبقى صديقتك مع تلاؤمي وحقائق هذا العالم. فقرر.»

هتف الراهب المسكين مندهشاً: «كان شابلو على حق حين قال: إذا تمكن تروبير من أن يسحبه من رجليه إلى القبر فسيفعل! إنه الآن ينام في سرير شابلو.

قالت السيدة دي ليستومير: لامجال الآن للتأوه، فليس لدينا إلا القليل من الوقت. هيا!»

كان بيروتو على درجة كبيرة من الطيبة بحيث لايمكنه إلا أن يطيع في الأزمات الكبرى وفي التفاني العفوي للوهلة الأولى. لكن حياته ليست الآن إلا ألماً مبرحاً؛ فقال وهو يلقي على حاميته نظرة قانطة آلمتها: «أنني أفوض أمري إليك فأنا الآن لست إلا عصفة في مهب ريح الشارع!».

هذه الكلمة التورينية ليس لها إلا مقابل واحد ممكن هو قشة التبن، لكن هناك قشات جميلة من التبن، صفراء، مصقولة، لماعة، تسعد الأطفال؛ أما العصفة فهي قذارة، زائلة اللون، موحلة، لفتها السيول، وطردتها العاصفة، وداستها أقدام المارة. استأنف بيروتو: «لكن يا سيدتي، لا أريد أن أترك للأب تروبير صورة شابلو، فقد رسمت هذه اللوحة لذكراه، وهي ملكي، فاعملي على إعادتها لي، وسأتخلى عن كل ما عداها. قالت السيدة دي ليستومير: حسن، سأذهب لمقابلة الآنسة غامار». قيلت هذه الكلمات بلهجة كشفت عن الجهد الغريب الذي تبذله السيدة دي ليستومير لمصانعة زهو العانس. وأضافت «سأجرب تسوية كل شيء، على الأقل آمل ذلك. اذهب لرؤية السيد دي بوربون، وليحرر صك تخليك عن

الخصومة بالصيغة الملائمة، وآتني بهذه الوثيقة موقعة وفق الأصول، وأرجح أننا سنستطيع إنهاء هذا الموضوع بمساعدة صاحب الغبطةالبطريرك».

خرج بيروتو مذعوراً، وغدا تروبير في عينيه بأبعاد هرم مصر، يداه في باريس، ومرفقاه في رواق سان غاتيان.

قال في نفسه: «هو يمنع السيد المركيز دي ليستومير من أن يسمى عضواً في مجلس أعيان فرنسة؟.. وعلى الأرجح وبمساعدة غبطة البطريرك يمكن أن ننتهي!» أمام مثل هذه المصالح الكبرى رأى بيروتو نفسه كحشرة عث: لقد عرف قدر نفسه.

كان خبر انتقال بيروتو مدعاة للدهشة بقدر غموض أسبابه، وادعت السيدة دي ليستومير أن ابن أخ زوجها يريد الزواج واعتزال البحرية، وأنها بحاجة من أجل توسيع منزلها إلى الشقة التي شغلها الوكيل الأسقفي. ما من أحد كان قد علم بتنازل بيروتو، وهكذا نفذت تعليمات السيد دي بوربون بتعقل: ارضاء غرور الوكيل البطريركي العام بإيصال هذين النبأين إلى مسامعه، فعائلة دي ليستومير إن لم تكن قد استسلمت فإنها على الأقل وقفت على الحياد، واعترفت ضمناً بقدرةالكونغرغاسيون الخفية: لكن هل يعني الاعتراف بها الخضوع لها؟ إن القضية ماتزال بكاملها رهن قرار القاضي! ألا يعني هذا انثناء وتهديداً في آن معاً؟.

اتخذ آل ليستومير إذاً في هذا الصراع موقفاً مماثلاً لموقف الوكيل العام. وضعوا أنفسهم خارج النزاع وهم يوجهون كل شيء فيه. لكن حدث أمر مفاجئ جعل تحقيق الهدف الذي خطط له دي بوربون وآل ليستومير في طمأنة حزب غامار وتروبير أكثر صعوبة. ففي العشية أصيبت الآنسة غامار وهي خارجة من الكاتدرائية، بالبرد، فلزمت الفراش بعدأن أحست باعتلال صحتها. لكن المدينة رددت شكاوي مستثارة بعاطفة شفقة كاذبة خلاصتها «أن حساسية الآنسة غامار لم تستطع الصمود أمام عار هذه القضية؛ ورغم حقها الصريح تكاد تموت كمداً؛ فبيروتو قتل المحسنةإليه...» هذه هي خلاصةالعبارات التي رددتها أقنية الشلةالنسائية المشبوهة وكررها مجاملةً سكانُ مدينة تور.

خجلت السيدة دي ليستومير من مجيئها لزيارة العانس دون أن تجني ثمرتها المرجوة؛ وطلبت بكل تهذيب أن تتحدث مع الوكيل البطريركي العام. وازدهى تروبير، على الأرجح، في أن يستقبل أمام مكتبة شابلو، وقرب تلك المدفأة المزينة باللوحتين الشهيرتين المتنازع عليهما؛ المرأة التي كانت تتجاهله، وجعل البارونة تنتظر بعض الوقت قبل استقبالها.

لم يسبق أبداً لمتملق أو دبلوماسي أن مارس مناقشة مصالحه الخاصةأو خاض مفاوضات وطنية بمثل هذه المهارة، والمواربة، والعمق التي مارسها الراهب والبارونة في اللحظة التي تواجه كل منهما فيها.

وعلى مثال العرّاب المشرف على تدريب البطل في العصر الوسيط، يسلحه ويقوي معنوياته بنصائحه المفيدة في اللحظةالتي يدخل فيها إلى الحلبة، قال دي بوربون العجوز الماكر للبارونة: «لاتنسي دورك، إنك موفقة ولست طرفاً ذا مصلحة؛ وتروبير من جهته وسيط أيضاً. زني كلماتك وكلماته! ادرسي التغيرات في مقام صوت الوكيل العام؛ وإن داعب لحيته فهذا يعني أنك أغريته.

إن بعض الرسامين يتسلون بتمثيل كاريكاتوري للتباين المتواتر الذي يحصل بين ما يقال وما يخطر بالبال؛ وهنا ولحسن استيعاب المباراة في الكلام الجارية بين الكاهن والسيدة النبيلة، من الضروري الكشف عن الأفكار التي يخفيها كل منهما بالتبادل تحت عبارات تبدو في الظاهر لامعنى لها. بدأت السيدة دي ليستومير بالتعبير عن الحزن الذي سببته لها قضية بيروتو ثم تطرقت إلى رغبتها في رؤية هذه القضية منتهية بما يرضي الطرفين.

قال الكاهن بصوت رصين: «لقد تفاقم الضرر يا سيدتي، فالآنسة الفاضلة غامار تحتضر أما ما يفكر به فهو (*لا يهمني أمر هذه الفتاة الحمقاء، فهي بالنسبة لي كقصة الراهب جان*[1]، *لكنني أريد أن أضع سبب موتها على عاتقكم لإقلاق ضميركم إن كنتم من البلهاء المهتمين بوخز الضمير*).

---

(١) الراهب جان: شخصية اسطورية اعتقد بوجودها فعلاً في العصر الوسيط وزعم أنه كان يملك حيناً في آسية العليا وحيناً آخر في الحبشة.

أجابت البارونة: عندما علمت بمرضها، يا سيدي، طلبت من السيد الوكيل الأسقفي تنازلاً عن دعواه، وأنا أحمله الآن لهذه الفتاة الورعة.

أما ما تفكر به فهو: (*إنني خمنت مافي نفسك أيها النذل الخبيث!*، ولكن *هانحن نأخذ خطيئتنا من نمائمك، لكن إن أخذت التنازل، فقد وقعت في الفخ، فهذا اعتراف بتواطئك*).

مرت لحظة صمت، قال بعدها الكاهن وهو يسبل جفنيه العريضين على عينيه البراقتين كعيني نسر ليخفي انفعالاته: إن قضايا الآنسة غامار الدنيوية ليست من شأني وتفكيره (*أوه! أوه! لن تعرضيني للشبهات! لكن ليتبارك الله! فهؤلاء المحامون الشياطين لن يرافعوا في قضية يمكن أن تلطخ سمعتي، لكن ماهدف آل ليستومير من هذه الخدمة لي!*).

ردت البارونة: سيدي إن قضايا الأب بيروتو بعيدة عني بقدر بعد مصالح الآنسة غامار عنك، لكن للأسف يمكن للدين أن يعاني من هذه المشاحنات، وأنا لا أرى فيك إلا وسيطاً حيث أجد نفسي موفقة.

وتفكيرها (*لا يخدع أحدنا الآخر يا سيد تروبير، أتراك شعرت بالمضمون الساخر في هذا الجواب؟*).

رد الوكيل البطريركي العام: وهل يمكن أن يعاني الدين ياسيدتي، إنه أسمى من أن ينال منه البشر، والله سيحكم علينا بدون خطأ، وأنا لا أعترف إلا بدينونته وتفكيره (*الدين هو أنا!*)

- أجابت: حسن ياسيدي، فلنسع لتتوافق أحكام البشر مع أحكام الله.

وتفكيرها (نعم، *الدين هو أنت*).

غيّر الأب تروبير منحى الحديث ولهجته فسأل: ألم يكن السيد ابن أخ زوجك في باريس؟ وتفكيره: (*وصلتكم هناك أخباري. إنني أستطيع أن أسحقكم، أنتم يا من ازدريتم بي، وها إنكم تستسلمون*).

ـ نعم يا سيدي، وأنا أشكرك لاهتمامك بتتبع أخباره. سيعود هذا المساء إلى باريس إذا استدعاه الوزير، وهو وفي جداً لنا، ويريد أن يقنعه بالتراجع عن رغبته في ترك الخدمة.

وتفكيرها: (*أيها الداهية، لن تسحقنا، وقد فهمت تلميحك الساخر*).

مرت لحظة صمت استأنفت البارونة بعدها القول: لم أجد تصرفه لائقاً في هذه القضية لكن يجب أن تغفر لبحار عدم التزام حد مصلحته.

وتفكيرها (*لنتحالف، فلن نربح شيئاً في هذا الصراع*).

ارتسمت على شفتي الراهب ابتسامة ضاعت سريعاً بين طيات وجهه وقال وهو يشير إلى اللوحتين المعلقتين فوق حافة المدفأة: قدم لنا خدمة بتقييم ثمن هاتين اللوحتين. وستشكلان زينة جميلة لمذبح العذراء.

وتفكيره (*وجهت لي سخرية، ها أنا أردها لك اثنتين، نحن متعادلان، يا سيدتي*).

قالت البارونة: إن أعطيتها لسان غاتيان، فأرجو أن تسمح لي بأن أقدم للكنيسة الأطر الجديرة بهما وبالمكان الذي ستوضعان فيه.

وتفكيرها (*أريد جادة أن أدفعك إلى الاعتراف بأنك تطمع بأثاث بيروتو*).

قال الكاهن وهو مستمر في احتراسه: إنهما لاتعودان لي.

قالت السيدة دي ليستومير: لكن هي ذي وثيقة تخمدكل جدل وتعيدهما للآنسة غامار»

ووضعت صك التنازل على المنضدة.

أما تفكيرها فهو (*أترى ياسيدي كم أنا واثقة منك*).

ثم أضافت: جدير بك يا سيدي، جدير بطبعك السمح أن تصالح مسيحيين، ؛ بالرغم من أنني الآن قليلة الاهتمام ببيروتو...

قاطعها الأب تروبير قائلاً : لكنه نزيلك .

- كلا يا سيدي لم يعد ضيفاً عليّ .

كان تفكيرها : (*إن عضوية أخي زوجي في مجلس الأعيان ، وترقية ابن أخيه جعلتني أرتكب هذه الدنايا*) .

حافظ الكاهن على عدم تأثره ، لكن مظهره الهادئ كان دلالة على انفعالات عميقة . والسيد دي بوربون وحده خمن سر هذا الهدوء الظاهر . فالكاهن قد انتصر .

سأل مستشاراً بعاطفة مماثلة لتلك التي تدفع امرأة إلى الحض على تكرار مديحها : لماذا كلفت نفسك إذا حمل صك تنازله .

- لم استطع الامتناع عن بادرة شفقة . فبيروتو بطبعه الضعيف الذي تعرفه ، رجاني أن أرى الآنسة غامار لأحصل منها لقاء تنازله عن . . .

قطب الراهب حاجبيه

واستأنفت البارونة : عن الحقوق المعترف له بها من قبل محامين معتبرين على صورة . . .

ونظر الراهب إلى السيدة دي ليستومير ، فتابعت :

على صورة الأب شابلو ، وأنا أترك لك الحكم على مطلبه . . .

كان تفكيرها : *ستدان ، إن أردت الاستمرار في المقاضاة .*

أظهرت نبرة البارونة وهي تلفظ كلمتي : محامين معتبرين للكاهن أنها تعرف مواطن ضعف وقوة العدو ، وبينت عن موهبة كبيرة لهذا الخبير المحنك خلال هذه المداولة التي استمرت طويلاً على هذا النغم ، دفعته إلى النزول لمقابلة الآنسة غامار ومعرفة جوابها حول الصفقة المقترحة .

عاد تروبير سريعاً وقال: «سيدتي، هي ذي الكلمات التي حملتني إياها المحتضرة المسكينة: «إن الأب شابلو برهن لي عن صداقة جمة بحيث لاأتخلى عن صورته» أما أنا، فلو أنها تعود لي، فلن أتنازل عنها لمخلوق، فأنا أكن للعزيز المرحوم عواطف ثابتة بحيث اعتقد جازماً بأن ليس من حق العالم منازعتي حول صورة له.

ردت: سيدي، لن نختلف على لوحة سيئة الرسم.

وكان تفكيرها (*إن لامبالاتي بها لاتقل عن سخريتك منها*).

احتفظوا بها، ويمكننا أن نوصي على إعداد نسخة عنها. إنني أهنئ نفسي لأنني أخمدت نار هذه القضية الحزينة والمؤسفة، وكسبت أنا شخصياً متعة التعرف إليك. سمعت من يتحدث عن موهبتك في لعبة الوست، وأرجو أن تغفر لامرأة فضولها.

ثم تابعت: إن إردت الحضور يوماً لإجراء جولة لعب في منزلي، فتأكد أنك ستلقى الترحيب اللائق بك».

داعب تروبير عند ذاك لحيته. وفكرت عندها: (*وقع في الفخ! كان دي بوربون على حق. ففيه مايكفيه من الغرور*).

والواقع أن الوكيل البطريركي العام شعر في تلك اللحظة بإحساس عذب، لم يتمكن فيما مضى ميرابو من مقاومته، عندما رأى في أيام هيمنته باب أحد القصور يفتح لمرور عربته بعد أن كان في السابق مغلقاً أمامه.

أجاب: «سيدتي إن مشاغلي الكبرى كثيرة لاتمكنني من الاختلاط بالمجتمع. ولكن من لايحاول تلبية دعوة تتكرمين بها عليه؟».

كان تفكيره: (*إن العانس ستنفق، سأتصل بآل ليستومير وأخدمهم إن خدموني! من الأفضل اتخاذهم أصدقاء بدلاً من معاداتهم*).

عادت السيدة دي ليستومير إلى منزلها، مؤملة أن البطريرك سينهي مصالحة

بدأت لحسن الحظ بها. لكن بيروتو لم يستفد حتى من تنازله. فقد أنبئت السيدة دي ليستومير في اليوم التالي بوفاة الآنسة غامار. ولم يدهش أحد عندما فتحت وصيتها بأنها وهبت كل مالها للأب تروبير. وقدرت ثروتها بنحو مئة ألف إكو. وأرسل الوكيل البطريركي العام دعوتين إلى السيدة دي ليستومير وابن أخ زوجها لحضور جنازة ومأتم صديقته.

قالت: يجب علينا الذهاب.

هتف السيد دي بوربون: هذا لايعني إلاشيئاً واحداً، هو البرهان على أن سيادة تروبير يريد الحكم عليكما. هيا يا بارون، اذهب حتى المقبرة». أضاف وهو يلتفت إلى النقيب البحري، الذي لم يكن قد غادر، لسوء حظه، مدينة تور.

تمت الصلاة على الجنازة، وكانت في روعة كهنوتية كبيرة. لكن لم يذرف الدموع فيها إلا شخص واحد، هو بيروتو، الذي انزوى قرب هيكل منعزل، وهو يعتقد نفسه سبب هذه الوفاة، وراح يصلي بكل إخلاص لراحة نفس المرحومة، وهو يأسف بمرارة لأنه لم يحصل منها على السماح عن أخطائه. ورافق الأب تروبير جثمان صديقته حتى القبر الذي دفنت فيه وألقى إلى جواره تأبيناً أخذت فيه، بفضل موهبته الخطابية، لوحة الحياة الضيقة التي مارستها الموصية الواهبة له أبعاداً مدهشة. ولاحظ الحضور في نهاية خطابه هذه الكلمات:

«تلك الحياة الملأى بأيام مخلصة لله ولدينها؛ تلك الحياة التي يزينها عديدمن المكرمات تمت بصمت، وعديد من الفضائل المتواضعة المجهولة، حطمت بألم نعتبر أنها لاتستحقه، إن كنا ونحن على أبواب الأبدية نستطيع أن ننسى أن جميع أشجاننا مرسلة لنا من قبل الله. إن أصدقاء هذه الفتاة الورعة العديدين العارفين نبل روحها وطهارتها، توقعوا أن بإمكانها تحمل كل شيء، ماعدا الشبهات التي أذبلت حياتها بكاملها. وهكذا فربما أرادت العناية الإلهية أن تقودها إلى حضن الله لتخلصها من شقائنا. سعداء أولئك الذين يستطيعون أن يستريحوا في هذا العالم بسلام مع أنفسهم، كما تستريح صوفي الآن في مثوى الأبرار متشحة بثوب طهارتها!».

تابع السيد دي بوربون الذي كان يقص مجريات الدفن للسيدة دي ليستومير، في الفترة التي انتهى فيها اللعب وأغلقت الأبواب وبقيا وحدهما مع البارون، قال: «بعد أن أنهى تروبير خطابه المفخم تصوروا، إن أمكن، هذا المماثل للويس الحادي عشر إنما في جبّة، وهو يهز المرشة الممتلئة بالماء المقدس». وتناول السيد دي بوربون الملقط وقلد بشكل بارع حركة الأب تروبير بحيث لم يستطع البارون وامرأة عمه من الامتناع عن الضحك. وتابع الملاك العجوز: «هنا فقط تناقض مع نفسه، فقد كانت وقفته حتى ذلك الوقت، خالية من كل عيب، لكن استحال عليه دون شك، وهو يغيب في الثرى، وإلى الأبد، تلك العانس التي يزدريها للغاية، ويكرهها على الأرجح بقدر كرهه لشابلو، إلا أن تظهر فرحته في حركة يده».

في صباح اليوم التالي، حضرت الآنسة سلمون للإفطار لدى السيدة دي ليستومير وقالت لها عند وصولها وهي بمنتهى التأثر: تلقى الأب المسكين بيروتو الآن ضربة قاسية، وهي تعبر عن خطط الكره الأكثر ضراوة، إذ سمي كاهناً لسان سمفوريان.».

وسان سمفوريان[1] هي أحد أرباض تور وتقع مابعد الجسر؛ وهذا الجسر وهو أحد أجمل أوابد الهندسةالمعمارية الفرنسية، هو بطول ١٩٠٠ قدم[2] وينتهي بساحتين متماثلتين من طرفيه.

---

(١) سان سمفوريان: محلة إلى الشمال من نهر اللوار إلى الشرق من جسر تور وهي في تناظر مع سان سير الواقعة إلى الغرب من الجسر.

(١) يلاحظ أن الجسر يبدو في الواقع وكأنه عقبة صعب اجتيازها: إذ يشير دليل سياحي انكليزي إلى اجتيازه وكأنه «مغامرة مرعبة» حتى أن كنيسة أنشئت على الضفة اليمنى من أجل الجالية الانكليزية في سان سمفوريان. كما أن ستندال أحس بالحاجة إلى إعطاء هذا الجسر أبعاداً استثنائية فذكر في كتاب مذكرات سائح (الجزء الأول-١٨٢٩): «هذا الجسر الذي تفخر به مدينة تور هو بعرض سبعةوأربعين قدماً ويتألف من خمسة عشر قوساً قطر كل منها خمسة وستين قدماً. لكنه يضيف: «لكن ككل ما تم إنشاؤه منذ خمسين عاماً، فإن هذا الجسر مريح تماماً، إنما ينقصه التميز» وستندال وربما كان يستوحي هذه المقاييس من كتاب يونغ: **رحلات في فرنسة** أدق من بلزاك فجسر تور لم يصل يوماً إلى طول ١٩٠٠ قدم (= ٦١٥,٦م) ويتألف من ١٥ قنطرة كل منها بقطر ٢٤,٤٠م وثخانة كل عضادة ٤,٨٧م مما يجعل طوله ٤٣٥م فيكون بلزاك قد أخطأ بأكثر من ٢٠٠ م.).

تابعت الآنسة سلمون بعد توقف وهي مندهشة من البرود الذي بدا على السيدة دي ليستومير وهي تستمع إلى النبأ: «أتدركون؟ إن الأب بيروتو سيكون هناك وكأنه على بعدمئة فرسخ عن تور، وعن أصدقائه، وعن كل شيء. أليس هذا نفياً تزيد من بشاعته أنه اقتلع من المدينة، وعيناه تراها كل يوم، لكنه لايستطيع أبداً المجيء إليها؟ فهو منذ المصيبة التي حلت به يكاد لايستطيع السير، وسيضطر لقطع مسافة فرسخ لزيارتنا. إن هذا المسكين الآن في الفراش، وقد انتابته الحمى، وبيت كاهن الرعية في سان سمفوريان بارد، ورطب. والرعية ليست على قدر من الغنى هناك لترميمه. سيجد العجوز المسكين نفسه هناك مدفوناً في قبر حقيقي. يا لهذا الإجراء الشرس!».

سيكفينا الآن على الأرجح، لإنهاء هذه القصة، أن نتطرق ببساطة إلى بعض الأحداث ونجمل اللوحة الأخيرة.

بعد خمسة أشهر سمي الوكيل البطريركي العام مطراناً؛ وتوفيت السيدة دي ليستومير تاركة في وصيتها هبة دخل سنوي للأب بيروتو بمقدار ألف وخمسمئة فرنك. وفي اليوم الذي عرفت فيه وصية البارونة؛ وكان المطران هياسنت، مطران تروا، مزمعاً أن يغادر مدينة تور للذهاب إلى مركزأبرشية حيث سيستقر، فأخّر رحيله وهو غاضب لأنه خدع من قبل امرأة مد لها يد العون، بينما كانت هي تمد يدها خفية إلى رجل يعتبره عدواً له. وهدد تروبير مجدداً مستقبل البارون وعضوية المركيز دي ليستومير في مجلس الأعيان. وأعلن في اجتماع حافل في صالة البطريركية إحدى هذه الكلمات الكنسية المبطنة بالانتقام والمليئة بالوداعة المنافقة. وحضر البحار الطموح ليرى هذا الكاهن الحقود الذي أملى عليه دون شك شروطاً قاسية، إذ أن سلوك البارون برهن عن انقياد كامل لإرادة قيم الكونغرغاسيون الرهيب. وأعاد المطران الجديد بعقد أصيل موثّق منزل الآنسة غامار إلى مجلس كهنة الكاتدرائية، وأعطى مكتبة شابلو وكتبه إلى الثانوية الدينية الصغرى[1]، وأهدى اللوحتين موضوع النزاع إلى مصلى العذراء، لكنه احتفظ

---

(٢) الثانوية الدينية الصغرى: Petit séminaire: مدرسة دينية ثانوية لاتهدف إلى إعداد طلابها إلى ارتداء الثوب الكهنوتي.

بصورة شابلو. ولم يتمكن أحد من إيجاد تفسير مقنع لهذا التنازل شبه التام عن ميراث الآنسة غامار. وافترض دي بوربون أن المطران احتفظ سراً بالسيولة النقدية ليتمكن من المحافظة على مركزه المتميز في باريس إن دعي إلى المجلس الأعلى للمطارنة، أخيراً انتهى العجوز الماكر إلى تخمين الخطةالأخيرة التي يخفيها هذا التصرف، في عشية يوم سفر المطران تروبير، كانت طعنة الرحمة الموجهة من قبل أكثر الانتقامات استمراراً وضراوة إلى أضعف الضحايا. فالبارون دي ليستومير طعن في هبة وصية امرأة عمه بذريعة الاحتيال؛ وبعد عدة أيام من إعلان افتتاح الدعوى سمي البارون قبطاناً؛ وبإجراءتأديبي حرم كاهن سان سمفوريان من القيام بوظيفته، فالرؤساء الدينيون حكموا في القضية مسبقاً، واعتبر قاتل المرحومة صوفي غامار إذاً محتالاً! فلو أن المطران تروبير احتفظ بميراث العانس لكان من الصعب عليه معاقبةبيروتو. في اللحظة التي كان المطران هياسنت، مطران تروا، يسافر على أحد مقاعد عربة البريد بمحاذاة ضفة سان سمفوريات ذاهباً إلى باريس، كان الأب المسكين بيروتو قد أجلس على مقعد في الشمس فوق مصطبة. وبدا هذا الكاهن المسكين المحروم من بطريركه شاحباً نحيلاً؛ وقد تجلى الحزن على جميع قسماته، وغيَّر كلياً هذا الوجه الفرح برقة سابقاً. وتجلى المرض في هاتين العينين المتعشتين ببراءة في الماضي بمتع المآكل الشهية والخلو من الأفكار الثقيلة، وخلع عليهما قناعاً أشبه باستغراق في التفكير، لم يكن هذا إلا هيكل بيروتو الذي كان يتنقل سابقاً فارغ الرأس لكن منشرح البال عبر حي رواق الكاتدرائية. ألقى المطران على ضحيته نظرة ازدراء وشفقة، ورضي بنسيانه، ومرَّ.

ما من شك في أن تروبير لو وجد في زمن آخر، لكان أشبه بهيلدبراند[١] أو اسكندر السادس[٢]، لكن الكنيسة ليست اليوم قوة سياسية، ولاتمتص قدرات

---

(١) هيلد براند: بابا باسم غريغوار السابع (١٠٧٣-١٠٨٥)، حرم الامبراطور هنري الرابع (انظر رواية **العانس**).

(٢) اسكندر السادس: بابا (١٤٩٢-١٥٠٣) وهو من أصل اسباني، اسمه قبل البابوية روديغو بورجيا، عاش حياة صاخبة، وقرب أقاربه، وكان عديم الذمة، لايبالي بارتكاب أي شيء في سبيل هيمنته الدنيوية على ايطالية.

الأشخاص المنعزلين. والتبتُّل يخلق عندئذ، بتركيزه كل مزايا الإنسان نحو هوى واحد، تلك العلة الرئيسة: الأنانية. إنه يجعل العازبين ضارين أو لانفع منهم. ونحن نعيش في عصرٍ، عيب الحكومات فيه أنها لم تكيف المجتمع من أجل الإنسان، وإنما الإنسان من أجل المجتمع، مما يخلق صراعاً مستمراً بين الفرد والنظام الذي يريد استغلاله؛ ويجرب استغلاله لمصلحته. بينما كان الإنسان في السابق، الأكثر حرية في الواقع يظهر تسامحاً أكبر من أجل القضايا العامة: والدائرة التي يتحرك ضمنها الناس اتسعت رويداً رويداً: والنفس التي يمكن أن تلم بالشمول ليست إلا استثناء رائعاً، إذ من المألوف في الأخلاق، كما في الفيزياء، أن تفقد الحركة من شدتها بقدر ما يزداد اتساعها، ولايجب أن يتأسس المجتمع على الاستثناءات. فالرجل، في البداية، كان بكل بساطة وبراءة أباً يخفق قلبه بحرارة متركزاً في محيط العائلة، وفيما بعد، من أجل العشيرة، أو المدينة الصغيرة ـ الدولة؛ ومن ذلك كانت التضحيات التاريخية الكبرى في اليونان وروما، ومن ثم غدا رجل الطبقة أو الدين يسعى لعظمتها مؤمناً بسمو هذا الهدف غالباً؛ لكن حقل اهتماماته اتسع هنا وشمل جميع المظاهر الفكرية. والآن ترتبط حياته بحياة وطن شاسع، وعما قريب ستتسع عائلته لتشمل العالم كله، على مايتوقع. أليست هذه المواطنية العالمية المعنوية، وهي أمل روما المسيحية، أكبر الأخطاء وأجلها؟ طبيعي جداً الاعتقاد بتحقق حلم نبيل، وبأخوة جميع البشر. لكن، للأسف! ليس للآلة الإنسانية مثل هذه الأبعاد الإلهية. والنفوس التي بلغت من السعة الاقتران بالرقة العاطفية الموقوفة على عظماء الرجال لن تكون أبداً نفوس المواطنين البسطاء أو أرباب العائلات. إن بعض الفيزيولوجيين يعتقدون أن الدماغ عندما يتسع إلى هذه الدرجة يجب على القلب أن يضيق. وهذا خطأ! أليست الأنانية الظاهرية للأشخاص الذين يضمون علماً أو أمة أو قوانين في أحضانهم هي أنبل الأهواء. وعلى هذا النحو ألا يجب لأمومة الجماهير لتولد شعوباً جدداً، أو تنتج

أفكاراً جـــديدة، أن تضـم في رؤوســـهـــا القـــادرة، أثداء المرأة وقـــوة الله؟ إن تاريخ اينوسنت الثالث[1]، وبطرس الأكبر[2]، وجميع موجهي أمة ما، أو عصر ما، برهنوا عند الحاجة، وفي مرتبة أكثر سمواً، عن تلك الفكرة الواسعة التي مثلها الأب تروبير في عمق رواق سان غاتيان.

سان فيرمن: نيسان ١٨٣٢

(١) إينوسنت الثالث: بابا من ١١٩٨ إلى ١٢١٦، اشتهر بطموحه وصلابته وهو المسؤول خاصة عن القضاء على الآلبيجيين الذين آمنوا بعقيدة المانوية في جنوب فرنسة.

(٢) بطرس الأكبر: قيصر روسيا من ١٦٨٢-١٧٢٥. وسع نفوذ بلاده في شرق أوربا واعتبر نفسه رأس الكنيسةالأرثوذكسي، وهو الشخصية الوحيدة في هذه القائمةمن غير البابوات.

دراسة حول القصة والمؤلف

إعداد : نيكول موزه

١٨٣٢ : هو العام الذي قطع بلزاك فيه علناً علاقاته مع ليبرالية شبابه، ليكافح في صفوف الحزب الملكي الشرعي. لكن هذا الانفصال، وقد نمت عنه، إضافة إلى ذلك مواقف سابقة؛ لم يكن له انعكاسات مباشرة وسريعة على إنتاجه الروائي. بل إنه ترافق بإمعان تفكيره في الماضي التاريخي والشخصي، مما مكنه لوحده أن يؤسس معرفة أوثق للحاضر. وليس في هذا تناقض، بل إنه تكامل. كما تميز العام ١٨٣٢، من وجهة النظر الأدبية، وسط إنتاج غزير جداً ومتنوع جداً، بولادة عدد من المؤلفات المرتبطةبأصل توريني(*) العشر الأوائل من **قصص ماجنة**، **وجنة الرمان**، **ولويس لامبر**. ومقاطعة تورين بالنسبة لبلزاك هي الطفولة. و**كاهن تور**، وخاصة في صيغتها الأولى، موضوعة كلياً تحت إشارة العودة إلى الذات. والعودة إلى الخلف. إنها قصة الملكية الثانية كغيرها من بعض الروايات والقصص في **الملهاة الإنسانية**، لكنها لاتنفتح أبداً على الحاضر؛ إنها قصة المقاطعة قبل ولادة: «مشاهد من حياة المقاطعات» (العام ١٨٣٣). ففي العام ١٨٣٢، وفي حقبة لم تكن فيها الرؤية البلزاكية للعالم موحدة كلياً على الصعيد السياسي أو الصعيد الأدبي، فالمقاطعات مايزال لها الوجه العاطفي والمبهم لتورين: جنة عندما يتعلق الأمر بملجأ آمن كجنة الرمان. وجحيم عندما يتطرق إلى رواق سان غاتيان البارد والرطب. وقد غلبت الدراسة السيكولوجية في **كاهن تور** كما في **جنة الرمان** على التحليل الاجتماعي والاقتصادي.

(*) نسبة إلى مقاطعة تورين.

و **كاهن تور** قصة تورينية، ولانعني بهذا أن بلزاك أعاد في هذه الرواية تسجيل حدث جرى فعلاً في تور طبعاً إن تسلسلاً من هذا النوع لايستبعد: وسبق أن جربنا في موضع آخر أن نبين أن نموذج الأب تروبير يمكن أن يكون أحد الكهنة القانونيين المسمى دوبو (١٨٥٩-١٨٢٢)، وكان يسكن هو أيضاً في حرم سان غاتيان في تور، وتميز خاصة بقضية مدوية أقيمت على كاهن آخر، حول موضوع أغراض وتزيينات كهنوتية. لكن الأساس ليس هنا بالطبع؛ أضف إلى أن بلزاك، كما هو معلوم، يبدل الحقائق التي يستوحي منها غالباً. وإذا كان لمسكن آل كلاي الفلمندي نموذج توريني، كما كشفت عن ذلك مادلين فارجو، فإن عناصر غير تورينية أمكن أيضاً أن تتسرب بارتياح إلى رواية تقع أحداثها في تور. وهناك أسماء مستمدة من المقاطعة المولديةتظهر في رويات واقعة خارج تور (فوكه، فليون، سولاس، دي مارسي، لامبير، كرمبير، هابير، مينيون، ميتوفله، بيلرو، غودن، جافت، ڤرنو) وبالعكس، هناك أسماء لاتصادف إلا قليلاً في المقاطعة ووردت في **كاهن تور** (سلمون، وربما غامار). لكن أمراً جوهرياً يتجلى أمام أعيننا: فهذه الرواية مبنيةوفقاًلصورة نموذجية للإنسان التوريني، كما يراه بلزاك، وطبع التوريني، وحسيته، وكسله، تفسر مصير فرنسوا بيروتو البائس.

إن الصورة التي يعطيها بلزاك عن مواطنيه تقدم خليطاً غريباً من القسوة والود. ووفقاً للظروف، يلح على هذا المظهر أو ذاك. لكن حكمه على العموم يبقى بشكل أساسي هو ذاته عبر غنائية **الزنبقة في الوادي** أو فجور **حكايات ماجنة**، وقد تشكل في قسمه الرئيس منذ الروايةالتراسلية المصممة في العام ١٨٢٠ بعنوان **ستيني**. فبطل **ستيني** المولود في تور، والمتربي في سان سير-سور-لوار، كبلزاك، يكتب إلى صديقه: «إن السكان هنا، على العموم، بلداء، دون عزيمة، ويعود طبعهم إلى لطف المناخ. إنهم بطمأنينة الهندي على ضفاف نهر الهندوس». والبيانات نفسها في رسالة من بلزاك إلى فيكتور راتيه، في ٢١ تموز ١٨٣٠ خلال فترة إقامة طويلة قضاهاتلك السنة في تورين، وبالضبط في سان-سير، في منزل جنة الرمان الصغير: أوه! لو تعلم ماهي تورين!.. فيها ينسى كل شيء. إنني أغفر

جيداً لسكانها بلادتهم، إنهم سعداء جداً! والحال، إنك تعلم أن الأشخاص الذين يتمتعون كثيراً أغبياء بشكل طبيعي. إن تورين تفسر بشكل رائع سلوك الصعاليك[1]. وفي **غوديسار الشهير** (تشرين أول ١٨٣٣)، ستحظى هذه المعزوفة بتعبيرها الأكثر كمالاً والأكثر دقة: «اعتلال الهواء واعتدال المناخ، وسهولة الحياة، وطيبة الطبائع، تقتل فيها سريعاً عاطفة الإحساس الفني، وتضيق أكثر القلوب اتساعاً، وتحتُّ أكثر العزائم صلابة. لكن انقل التوريني خارج منطقته، فتنمُ مزاياه وتنتج أشياء كثيرة. . . . وفي **كاهن تور** بالذات تُصوّر تور «كإحدى المدن الأقل اهتماماً بالأدب في فرنسة.»، وتصور تورين بشكل عام «كمنطقة، ما من انسان يريد أن يزعج نفسه فيها لأي أمر، حتى وإن كان السعي إلى متعة». ولا يمكن أن تفهم الرواية إلا بناء على هذا السياق الإيديولوجي. كان ل. ف. هوفمن أول من سلط الضوء عل دور المتعة، وعلى الأخص الحسية منها في هذه القصة الشديدة الحشمة في الظاهر. الشهوة الحسية لبيروتو تتثبت على الأشياء لعجزه التوجه لغيرها: المقارنات الصريحة بين شقة شابلو وامرأة جميلة لاتترك مجالاً للشك بهذا الخصوص. فكل قطعة أثاث من الكتب حتى السرير هي رمز رفاه. ومسكن الآنسة غامار، عند تحوله بفضل عناية شابلو، يمثل بالنسبة لشهوانية بيروتو الصورة الكاملةللسعادة والنعيم: ترف، نظافة دقيقة، دفء ورفاه؛ دون نسيان المآكل الشهية، والبياضات التي تفوح منها رائحة السوسن العطرية. وفي **كاهن تور** يظهر لأول مرة موضوع المضيفة الكلية القدرة التي سنجدها في الأب **غوريو** و**المتصيدة**. ففي هاتين الروايتين كما في **كاهن تور**، يمكن للبيت نفسه أن يكون نعيماً أو جحيماً وفقاً لنزوات المرأة التي تديره. لكن نزلاء السيدة فوكيه راستينياك، أو ڤوترن أو غوريو لديهم أهواء أخرى، ويظهرون قليلي الاهتمام بالمآكل الشهية، على النقيض من جان جاك روجه في **المتصيدة**، حيث تبدو إرادته أكثر ضعفاً من إرادة بيروتو؛ وهومستعبد كلياً لامرأة هي في ذات الوقت طباخته وخليلته.

(١) الصعلوك Lazzarone: كلمة من عامية مدينة نابولي مأخوذة عن الإسبانيةو تعني رعاع المدينة Lazzaro (لعلها مستمدة من عربية الأندلس «الأزعر»: ملاحظةالمترجم).

يضـاف إلى هذا الميل للرفـاه الحسي لدى بيروتو الرخاوة والكسل المشكلان لتفرده «التوريني» . فـهذا الشخص لايعرف أبداً إلا **الانتظار** . فـهو ينتظر أن يسمى كـاهناً قـانونيـاً ، كـمـا انتظر اثنتي عـشـر سنة ليفـتـح له مـوت شـابلو باب بيت الآنسـةغامـار ، لكنه لم يحظ بهذه التسـمـية ، ليس هذا فقط ، بل عـجز أيضـاً عن الاحتفاظ بالمكان الذي أوصلته إليه وصية شابلو ، وهو في نهايةالقصة ليس وكيلاً أسـقـفيـاً في تور ، بل وليس كـاهناً في سـان سـمفـوريان بعـد أن حرمـه تروبيـر من وظيفته .

مقـابل الانتظار يقـوم السعي الذي يتطلب إنسـاناً عـزومـاً بل ومقـاتلاً . وفي **كاهن تور** يكون بيروتو «الشخصية الرئيسة» غير أنه عكس البطل : فهدف الرغبة بالنسبة إليه لايمكن اكتسابه وإنما وراثته فقط . والحقيقة ذاتها صلحت طويلاً كوسيلة لتروبير ، رغم الفروق السيكولوجية بين الشخصيتين ، بسبب الدائرة الضيقة التي تبقى طاقته الكامنة منغلقة فيها . لكن خاتمة الرواية تقول بجلاء أنه لو أمكن لتروبير أن يناور في إطار أكثر سعة من رواق سان غاتيان لكان بطلاً جيداً ؛ فقد حكم عليه هو أيضـاً بالانتظار داخل ذلك الرواق حتى وإن تعلق الأمـر بالعـمل على تحـويل ميراث شابلو الذي آل إليه بعد أن انتقل إلى بيروتو ومنه إلى صـوفي غـامار : تدبير متعرج غير جدير بمثل هذا الذكاء الفائق الذي ألزمته الظروف على ترقب ساعة الانطلاق . أما فيما يتعلق بميراث ليستومير ، فإنه لـم يستفد منه مباشرة إنماتدبر فقط حرمان بيروتو من النصيب الذي أوصي له به ، إضافة إلى معاقبته . وهكذا انتقم من شابلو الذي لم يصطفه وفضل عليه بيروتو وأبعده عن الصالونات الارستقراطية في المدينة ، معرقلاً سير ترقيته الكهنوتية . وظن بيروتو بسذاجة أن تروبير سيوافق على أن يعيد إليه صورة لشابلو لاقيمة تجارية لها ؛ لكن هذا على العكس تمسك بصورة عدوه ، وأظهر بوضوح باحتفاظه بهذه القطعة الوحيدة من ميراث الآنسة غامار ، أن رمز انتصاره أجلُّ في عينيه من دخل رأسمال مادي .

بإقامة العقبات المحلية أمامه في تور، اضطر تروبير أن يشق طريقه في مجال آخر، بفضل القدرة الغامضة والمؤذية للكونغرغاسيون . وبحرمانه من مستقبل سهل، اضطر على هذا النحو، أن يشغل ذكاءه، فهو يمثل هكذا التوريني المطرود من الجنة. «المنتقل» المنجز «لأشياء كثيرة» لأنه أبعد عن المتع الصغيرة. فشابلو حرمه من مجال البهجة فانطلق يسعى إلى السيطرة؛ فعدم الاستمتاع يؤدي، كتعويض، إلى الرغبة في الهيمنة. بينما ضعف النفوذ هوالشرط الضروري للإنصراف إلى المتعة، . وبحركة ترجح وبينما كان بيروتو ينتقل من المتعة إلى الحرمان؛ كان تروبير ينتقل من الكبت إلى القدرة. غير أن هناك درجات ومراحل متوسطة: فشابلو وفق المتعةوالنفوذ بإخفائه حقيقة قدرته. وتروبير قنَّع بدوره قدرته، وهي حتى في تور البعيدة عن إرواء طموحه، لايستهان بها لكنها تبقى مجهولة من أعدائه. مثله كمثل سكست كنت ـ والمقارنة لبلزاك ـ الذي اضطر لسنوات طويلة إلى التظاهر بالضعف والعجز. بهدف الوصول إلى كرسي البابوية.

هكذا يمكننا أن ندرك كيف أن قصة«تورينية» بشكل نموذجي، هي أيضاً، وفقاً لصيغة بلزاك بالذات، حكاية «جميع الأزمنة». وهو تصريح غريب للوهلة الأولى، ومتعارض ظاهرياًمع النقائض المؤكد عليها غالباً في **الملهاة الإنسانية** بين «مختلف المستويات»: الزمنية (سابقاً/ حالياً)، أو المكانية (باريس/ المقاطعات) أو الاجتماعية (بورجوازية/ ارستقراطية) لكن هذا يعني فقط أن هذا الصراع بين المتعة والقدرة قابل لاحتواء تطبيقات أخرى في «مستويات» شديدة الاختلاف عن تلك التي سبق اختيارها.

اختيار أساسي مع ذلك لأنه يبين السمة **المثالية** «للقصة» المروية. فضيق «الحيز» المستكشف في **كاهن تور** يعمل كعدسة مكبرة: فالمصالح شديدة الحقارة حتى أن آلية اللعبة بجميع تروسها، توجد بفظاظة في دائرة الضوء دون وجود أي حاجز؛ ولو سردت حكاية البابا سكست كنْت لتضخمت المجازفة السياسية حتى لايمكن حجب البقية مع تروبير يسود بعض الشعور بأننا أمام عملية ذات طابع

تجريبي **فكاهن تور** باعتبارها قصة تورينية يمكنها أيضاً أن تكون «قصة لجميع الأزمنة».

من هنا أهمية الفصل المكاني، فلوضوح المسار الرمزي للشخصيتين المتكاملتين بيروتو وتروبير يجب أن يتسجل في مجاز. واستُخدم جسر اللوار كحد بين عالمين متميزين. من هنا رواق سان غاتيان، وهو بالنسبة لبيروتو مكان التنعم، وبالنسبة لتروبير مقر الركود. ومابعده موقع القدرة في موضع لم يوصف أبداً وكاد أن يكون دون اسم (في العام ١٨٤٣ فقط، وفي طبعة فورن، حددت وجهة سفر تروبير). وفي باريس كُشِفَ نفوذ الراهب للبارون دي ليستومير؛ وفي تروا غدا تروبير مطراناً، بينما نفي بيروتو إلى سان سمفوريان. ودارة القبَّرة، المقر الريفي للسيدة دي ليستومير، تقع على ضفة اللوار، إنما من الجهة الأخرى من الجسر، وهي مكان متوسط يجري فيه التحول؛ فإليه يتوجه محامي صوفي غامار لمقابلة بيروتو الذي مازال يأمل بإمكانية تسويةالخلاف، بينما ينبئه المحامي ببداية مصيبته.

وبدءاً من اللحظة التي تتفسر فيها الرواية بتعابير مكانية، تدرك كل دلالة المجاز النباتي، وهو من منشأ توريني أيضاً. وبلزاك نفسه شعر حيناً بأنه يكاد يتحول إلى «نبتة» عندما يقيم لبعض الوقت في تورين، وقد كتب للسيدةهانسكا في ١٨ تشرين أول ١٨٣٤: «إنني هنا أشبه بنبتة أو محار» وفي الرواية، تبدو الفعالية الوحيدة التي ينصرف إليها سكان تور كفعالية النبات: «هؤلاء الأشخاص يسكنون جميعاً المدينة بطريقة تدفع إلى تصور عمل الأوعية الشعرية في نبتة، فهم يتتبعون بظمأ ورقة للندى، الأخبار، وأسرار كل عائلة، لامتصاصها، ونقلها آلياً إلى الأب تروبير، كما تنقل الأوراق للساق الطراوة التي امتصتها». وجمهور الرواية نسوي بكامله تقريباً والرجال القلائل أشبه بأدوات ثانوية، رعناء في الغالب، كالبارون دي ليستومير. وتروبير نفسه كان مضطراً أن ينثني أمام الآنسة غامار قبل أن يخضع

جـميع الناس لإرادته، بمن فيـهم البـارون. لكن بيـروتو بالطبع هو من يقدم المثال الأكثر اكتمالاً عن حياة غدت نباتية تماماًإلى درجة لم يعدبالإمكان تنشيطها، ولئن كان تغيير المكان ضـرورياً لتفتح المزايا الطبيعية للتوريني، فلابد لهذا التغيير أن يتم في وقت مبكر: فالأخ الشقيق للراهب، سيزار بيروتو، وهو من جمع ثروة في باريس من العطور، غادر، وهو فتى، تورين موطنه الأصلي: أما فرنسوا بيروتو في عمره المتقدم، فيكفي إبعاده قليلاً عن ظل الكاتدرائية لرؤيته يضنى.

بقي علينا أن نلج إلى رواق سان غـاتيـان، هذه «المنطقـة» ذات الامـتيـاز، فبمـوازاة الحبكة التي أتينا على كشفها، هناك تاريخ آخر يكتب، وهو في ذات الوقت الذي يضيئها ويشرحها، يتقدمهاويتجاوزها.

كاهن تور مع **جنة الرمان** القصتان الوحيدتان في **الملهاة الإنسانية** اللتان ينتسخ فيهما مكان الخيال القصصي عن مكان واقعي، مع بعض ترتيبات بالتأكيد لكن دون أي نقل. ولايمكن أن نقول مثل ذلك، إن رجعنا إلى الروايات الأكثر شهرة، لاعن بيت فوكه في **الأب غوريو** ولاعن بيت غرانده في سومور موقع أحداث **أوجيني غرانده**، ولاحتى عن قصر كلوشغورد في **الزنبقة في الوادي**.

ليس فقط شارع بسالت موجوداً في تور، وإنما أيضاً وصف المنزل الذي تقيم فيه الآنسة غامار يستحضر دون أي شك ممكن مع كتلتي البناء المتعامدتين إلى الذاكرة العمارة الصغيرة المسماة اليوم رواق بسالت، والتي يجب عدم اللبس بينها وبين المكان المسمى رواق سان غاتيان من قبل بلزاك. فرواق بسالت (المسمى في السابق بهو سان غاتيان) هو منزل غامار، ورواق سان غاتيان هو الحي. وكلمة **رواق** يمكن أن تعني في الواقع، قبل الصورة، نطاقاً يتضمن حول كنيسة كاتدرائية عدداً من المساكن الكهنوتية، وهذا هو الحال في تور بالنسبة لرواق سان غاتيان، حيث يوجد أحد مداخله بالضبط على شارع بسالت، ولكن هذا النطاق زال في

مطلع القرن التاسع عشر، وبلزاك بالذات، أياً كانت خبرته الأثرية لم تكن لديه على مايبدو فكرة دقيقة عن حدوده القديمة. وقد استخدم تعبير «رواق سان غاتيان» وفقاً للاستعمال الذي مايزال سائداً في تور للإشارة إلى ساحة غريغوار - تور والمناطق المجاورة لها مباشرة. وبما لم يكن يوجد آنئذ ممر في الجهة الشمالية من الكاتدرائية، وجب الانعطاف إلى الشارع الكبير أو إلى الجهة الجنوبية. وهكذا ندرك بشكل أكثر وضوحاً سبب الإشارة في الرواية إلى بعد هذا المكان عن مركز المدينة، بينما تكفي عدة دقائق للوصول إلى شارع ناسيونال.

تعرضت أبنية الباحة القديمة منذ قرن ونصف، إلى تعديلات عديدة، تجعل في المقارنات بعض الصعوبات. لكن بعض التفاصيل ماتزال باقية كالنمنمات والأشكال البيضوية على النوافذ؛ لكن الفرق الأكثر تميزاً، والذي يفسر بضرورات السرد القصصي، هو أن بناء الباحة كان مؤلفاً من ثلاثة أجنحة بينما لم يتشكل بيت غامار إلا من قسمين، لكنهما حافظا على وضع متعامد، وهو قليل الظهور في المساكن الخاصة، وخاصة في المدينة، لكنه بالعكس مميز للهندسة المعمارية الدينية. هذه الشواهد تسمح بالتأكيد أن بلزاك كان يفكر فعلاً بالباحة، رغم عدم مطابقة بعض التفاصيل (لاتوجد إلا دعامة واحدة في حديقة الباحة، وتوجد منازل أخرى في شارع بسالت. الخ. . .) فالخيال والواقع يتوافقان فعلاً بطريقة استثنائية: إنها علامة ذكرى حية متأصلة بصورة خاصة؛ مما يوجب محاولة العثور على منشئها.

مما يسهل أبحاثنا بشكل كبير اعتبار رواق سان غاتيان، أو على الأقل منزل غامار «مكاناً معاد الظهور» في نتاج بلزاك، فعدة نصوص سابقة **لكاهن تور** تعطي فكرة أكثر دقة عن مشاركات شعورية أيقظها لدى الكاتب هذا الحي المميز ببعض الغرابة، فنجد سابقاً في **ستيني** وصفاً بقلم البطل دل رايس: «كانت تسكن في رواق سان غاتيان، الشارع القاتم. . حيث الأبنية الكبيرة الكريهة، قفر. . والليل مظلم لا

جمال فيه، والسماء مكفهرة بغيوم كثيفة سوداء.» وبطلة **ستيني** شابة، جميلة، ناعمة؛ فالتضاد بالبداهة كثير الرومنسية، نجده مجدداً في رواية أخرى من نتاج الشباب **وان كلور** فوان إيرلندية شابة جاءت تلتجئ في الرواق لأنها اعتقدت أن الرجل الذي تحبه خانها؛ وهذه الشخصية الأكثر إعداداً من بطلة الرواية السابقة تبشر بأحد المواضيع الكبرى في **الملهاة الإنسانية** وهوموضوع المرأة المهجورة. واستحضار سان غاتيان أكثر رومنسية أيضاً منه في **ستيني** (الصفة وردت في النص): «صيحات غربان مشؤومة»، «مكان قاتم صامت... قفر كأنه بؤرة رعب» «حجارة بلون أسود»، «عزلة مروعة». ومنذ ذلك الوقت كان لبلزاك نظرية عن علاقة الأمكنة بالشعور الداخلي للشخصيات: «أتاحت وان كلور التخمين عن أفكارها الخفية بمظهر مكان إقامتها وحده».

غير أن صورة الرواق ووصف الطبائع السيكولوجية المطلوبة لاحتمال السكن فيه سيطرأ عليهما التعديل. ففي **وان كلور** يعلن بلزاك أن الحب وحده، بشرياً كان أم إلهياً يمكن أن يتيح تحمل كآبة الرواق: «لأجل العيش في هذه الأمكنة، يجب التحلي بعاطفة خالدة يمكنها لوحدها أن تدعم الروح وتحييها: يجب أن يكون الساكن عاشقاً أو راهباً» في العام ١٨٣٢، لم تعد الإثارة الرومنسية واردة لا للكهنة ولا للآنسة غامار، ولم تعد العلاقة بين الكائنات والأمكنة المسكونة تتحدد بالتناقض وإنما بالتشابه. وإذا كان بلزاك مايزال يعتقد أن غنى الحياة الداخلية يمكن أن يساعد على تحمل وحشةالرواق، فإنه يضيف هذه الجدة، وهي أن الغباوة العميقة يمكن أن تؤدي إلى النتيجة نفسها: «وحشةمليئةبسحنة لايمكن أن تتقمصها إلا كائنات وصلت إلى بلادة كاملة أو وهبت قوة روح خارقة». ورغم ذلك فتروبير الذي يمثل قوة الروح، يعيش في الخيال خارج الرواق، وساكناه الحقيقيان بيروتو وصوفي غامار، ، هم في انسجام كامل مع المحيط الذي يأويهما، وعلى مستوى سلبي كامل: صمت، وبرد، وخمول، وأنانية. ولاشيء ينبت في حديقة الآنسة

غامار باستثناء البقس وهو رمز العقم: حديقة أكثر شؤماً أيضاً من حديقة كورنليوس الشحيح، «حيث لايوجد إلا العليق». و **كاهن تور** روايةشتاء حيث تشتد آلام النقرس، ويسبب التهاب القصبات الموت.

لكن مامن انحطاط يصيب رواق سان غاتيان في هذا الاستحضار الجديد. بينما غيره من الأماكن لايظهر مجدداً بين روايةوأخرى من **الملهاة الإنسانية**، إلا من جانب تلميح يعطي الأثر بزوالها: هكذا منزل كورمون في **حجرة العاديات القديمة**، أو بستان الرمان في **الزنبقة في الوادي**؛ وبالعكس فباستعراض مؤلفات الشباب السابقة **لكاهن تور**، فإن رواق سان غاتيان رقي إلى نوع من التمجيد: فقد أنهى البحث الطويل الذي يشهد عليه العدد الكبير من البدايات الملغاة (وعددها ست عشرة بداية) إلى التركيز على اختياره. وتضييق حقل الرؤية، بالمعنى السينمائي للاصطلاح، يعطي أهمية راجحة لصورة الرواق، وقد كان في البدء عنصراً بسيطاً من بين عناصر أخرى؛ ثم كبر بالمعنى الذي يعطى لتكبير صورة، وفي ذات الوقت تمت سيرورة إزالة الشكل الأسطوري عنه: فما بين ١٨٢٠ و١٨٣٢، فقد المكان صفاته المفخمة مع بقاءه ذي سحنة خاصة. فكأن الصورة انجلت: خططت ورسمت بشكل أدق. وهذا الإجراء المحسوس الذي نسميه أحياناً واقعية بلزاكية، لاعلاقة له بدرجة «الأمانة» في التصور، كبرت أو صغرت.

وبصورة غير مباشرة، فإن صورة المدينة تحولت هي بدورها أيضاً بشكل عميق، وخاصة بالنسبة لما ذكر عنها في **ستيني**. ففي تلك الرواية، كان الوصف في آن واحد مجملاً ومفصلاً، شاعرياً وجغرافياً: «المدينة دائرية، ولجهتها الشمالية أجمل منظر في الوجود، فهو يرجح على منظر نابولي، ويبدو نهر اللوار في أقصى عرض له يسيل أمام تلك المدينة كأنه في قناة خطها له مهندس معماري.. وحركة المرفأ، وصراخ البحارة، وهبوب الأنسام العليلة تجعل تلك التلة مستساغة جداً. وكلمة تلة هي التسمية المصطلح عليها في المنطقة؛ وهي محاطة بصف من أشجار

الحور الرائعة التي يسمع حفيفها وهي تمتد على جانبي المدينة التي يقسمها الجسر والشارع الذي سمي على التتابع الشارع الجمهوري، ثم الامبراطوري، ثم الملكي.». لاشيء من هذا في **كاهن تور**: ما من وصف مجمل، ولاتصد لأي نشاط اقتصادي، حتى الكرمة لا ذكر لها؛ ولاشيء يتحرك على اللوار فهو لايتعدى حداً مجرداً. والتلميح الوحيد «لمركز المدينة» هو الإشارة لبعده.

غير أن الشارع (واسمه حالياً الشارع الوطني) ليس فقط، منذ نهاية القرن الثامن عشر، الشريان الرئيس في تور، بل هو أيضاً الشارع الذي ولد في أحد منازله الكاتب وسكن عدة سنوات. ونحن لانصادفه في **الملهاة الإنسانية** مما يمكن أن يثير الدهشة، عندما نفكر إلى أي مدى يتعلق بلزاك بالأمكنة والأسماء، والواقع أنه لم ينسه، لكنه احتفظ له بمكان خاص في إحدى الحكايات الماجنة **المناجاة** التي تجري في القرن الخامس عشر، وفيها يتصدى بلزاك في آن واحد إلى تاريخ الأحداث، والاحتمال والقواعد المتبعة في السرد، ويدرج مقطعاً حماسياً لاعلاقة له بالنص السابق أوالتالي له:

إنه شارع جديد دائماً، ملكي دائماً، امبراطوري دائماً، شارع وطني، شارع ذو رصيفين، شارع مفتوح في طرفيه، جيد النفاذ، شارع عريض لدرجة لاتسمع فيه صرخة حذار!..

إنه شارع لن يصيبه البلى، شارع يصل مابين دير غران ـ مون وخندق يرتبط جيداً مع الجسر، وفي نهايته ساحة معرض جميلة، شارع مرصوف جيداً مشيد جيداً، مغسول جيداً، نظيف كأنه مرآة؛ مزدحم بالسكان، صامت في ساعاته الليلية، مغناج، ومغطى جيداً بسقوفه الزرقاء الجميلة. باختصار، إنه الشارع الذي ولدت فيه، إنه ملك الشوارع، هو دائماً بين السماء والأرض، شارع ذو نوافير،

لاينقصه شيء ليكون شهيراً بين الشوارع! . . . وهو في الواقع الشارع الحقيقي! . . . الشارع الوحيد في تور . . . فإن وجدت شوارع أخرى فهي قاتمة، متعرجة، ضيقة، رطبة، ترد بكل إجلال لتحيي ذلك الشارع النبيل الذي يشرف عليها! . . . وأينما كنت . . . وما أن أغدو فيه، مامن شيء يبعدني عنه، لشدة طرافته . . .

إنما أنا مدين بتقديم هذا الاحترام البنوي، النشيد الوصفي المنبعث من القلب لشارع مولدي.

هذا الاستشهاد الطويل ضروري ليتيح لنا تفسير غياب المركز الحيوي في تور من نصنا الأصلي. فنص **المناجاة** في غنائيته يحوي شحنة عاطفية غنية جداً، سمح الأسلوب المتكلف والحر للقصة الماجنة أن يتوسع فيها؛ كما أن التشبه المزين باللغة القديمة ساعد على تنكر ملائم لبعض الاعترافات: فالحكايات الماجنة تعمل كتمثيل نفساني وتفيض في مغالاة لايمكن التعبير عنها بشكل آخر وخاصة بالشكل المباشر. وفي **كاهن تور** تمّ ممارسة رقابة بشكل ضمني؛ هي ليست كبتاً وإنما هي طرح أو رفض، فهناك عدم تلاؤم بين الكآبة المسكينة في القصة بمجملها والتفجر الفرح الذي يرافق ظهور وعي ماض طفولي. فالموضوع التوريني يظهر فيها إذاً تحت شكل آخر، إنما ليس أقل دلالة. فبالاستعادات المعندة يلعب رواق سان غاتيان دوراً مماثلاً لدور الذكرى-الحاجز في التحليل النفسي الفرويدي: شيء ثانوي يحل في الحلم محل الشيء الرئيس ليحجبه ويحفظ له ديمومته. لكن الرواية ليست حلماً، وفي **كاهن تور** فإن رواق سان غاتيان يفرض نفسه في العمل الكتابي يغدو أكثر من الشارع الوطني ذاته مكاناً رمزياً للطفولة.

يكشف وصف الرواق عن غياب آخر مستغرب، وهو غياب الكاتدرائية بالذات. مامن مرة تدخلنا القصة إليها: وعندما يجري الأب بيروتو فيها بسرعة

عدة جنازات، وإكليلاً وعمادتين، نتلقى الخبر دون أي دعوة لمرافقته. ولانرى أبداً حتى من الخارج الصرح التاريخي ببرجيه المتعاليين حتى السماء، ولانضبط إلا بعض عناصر ملحقة وجانبية ـ وخاصة الدعائم القوسية الخارجية ـ وهي كالرواق منعزلة عن باقي المدينة تأخذ هكذا بعض البروز. وبهذا الخصوص يمكن أيضاً لستيني ووان كلور أن تقدما بعض نقاط المقارنة وكذلك بعض النصوص الأكثر حداثة. ففي **الكنيسة** وهي قصة نشرت في العام ١٨٣١ في الجزء الثالث من **روايات وقصص فلسفية** (ألحقت فيما بعد بقصة **يسوع المسيح في الفلاندر**) يصور داخل الكاتدرائية تحت أشعة الشمس عبر زجاج النوافذ الملون كمكان لجميع التحولات. كذلك فقصة **المعلم كورنليوس** (نهاية ١٨٣١) تعرض بعض تفاصيل من ذات النسق، ونعثر أيضاً في مشروع القصة المعنون «**العانس**» (نيسان ١٨٣٢) تماماً قبل **كاهن تور** ذات الرؤية المندهشة، مع عديد من الصفات مثل «سامية» و«مرهفة» و«معجزة» و«مثيرة للإعجاب». . . والحال أننا لانصادف في **كاهن تور** إلا مرة واحدة كلمة «رائعة» منعزلة تماماً ومنفية في حديث موضوعي جداً لعالم آثار. ومرة أخرى تنتقل من الموجب إلى السالب، ومن النور إلى الظل التوضيحات الواردة في النصوص السابقة.

ومع ذلك، فهناك استثناء ذو دلالة، فهذا جسر تور يستحضر على شفتي المؤلف وقد اتخذ شخصية عالم الآثار فكتب عنه هذه الأسطر: «هذا الجسر، وهو أحد أجمل آثار الهندسة المعمارية الفرنسية بطول ألف وتسعمئة قدم، وساحتين متماثلتين تماماً تنهيان كل طرف من طرفيه». ومن المؤكد أن هذا الوصف لم يذكر عبثاً إذ أراد الروائي أن يبرز بقوة العقبة التي تسم منفى بيروتو بسمة ما يتعذر إصلاحه، ومن جهة أخرى فالعبارة الجافة بشكل خاص هي أقرب «الواقعية كاهن تور منها إلى غنائية النصوص السابقة. غير أن ستيني تقدم لنا مرة أخرى تعبيراً مرجعياً إذ يصرح جاكوب دل رايس لصديقه في ڤافهرس وهو ينهي الرسالة الأولى من الرواية: «اتركك للذهاب لرؤية جسر تور الرائع، إنه منشأة جديرة بالرومان،

سيصلك يوماً ماوصف دقيق لأبعاده وأقواسه، وأرصفته، وعدد الأحجار التي شيد بها» والكاتب في العام ١٨٣٢ يبدو وكأنه يريد إعطاء الكلام مجدداً إلى بطل **ستيني** ليبر بالوعد الذي قطعه لصديقه، وهكذا كان في ذات الوقت أميناً لماضيه الخاص بنقل مكاني لذكرى طفولة؛ لأن جسر القرن الثامن عشر تهدم في العام ١٧٨٩ بتقصف جليد النهر، وشهد بلزاك وهو طفل صغير إعادة بنائه في نهاية العهد القنصلي. وبمصادفة لانعتقد أنها طارئة، كان تهدم سان مارتن، البناء الوحيد خارج الرواق الذي ورد ذكره في الرواية، معاصراً تماماً لإعادة بناء الجسر.

يدل هذا المثال على أن **الملهاة الإنسانية** لايمكن مقارنتها بدليل سياحي، حتى عندما يتبع بلزاك أسلوبه، ويقدم في الظاهر ذات النوع من المعلومات: إنما كانت المعلومة خاطئة والخطأ المرتكب زيادة طول الجسر نحو ١٨٠ متراً! أما فيما يتعلق بباقي المدينة، فجميع الأدلة والمؤلفات التاريخية تستحضر الشارع الوطني، والكاتدرائية، وأوابد أخرى، قبل التطرق، الذي لايتم دائماً، لرواق سان غاتيان. فالطبوغرافية البلزاكية هي دراسة بالمكبرة، تكشف عن مظاهر خفية من الزخرفة، وتهمل في الغالب الذهاب إلى الأكثر شهرة أوإلى ماينتظر ذكره.

مثل هذه التقنية رغم تطبيقها أحياناً على أوصاف باريسية تتميز في روايات المقاطعات؛ ونجد، في كل مكان، التقطيع نفسه، في آنغولم، وبيزانسون، وليموج، وسمور، وإيسودن. وقد وصفت مدن المقاطعات، عن طيبة خاطر، في مظاهرها الأكثر قدماً والأقل تطابقاً مع الحقيقة المباشرة للتاريخ. ولايتحقق هذا القانون في أي مكان آخر مثل تحققه في **كاهن تور** حيث بدا كل القسم الرئيس في المدينة متجاهلا. ولن تبعث تور نشطة حيّة إلا في مناسبة أحد الاحتفالات، لإتاحة اللقاء بين فليكس دي ڤاندنس وهنرييت دي مورسوف في رواية **الزنبقة في الوادي**. ذلك أن وجهة نظر بلزاك ستتعدل. وليس من قبيل المصادفة أن تكون آنغولم هي إطار ثلاثية **أوهام ضائعة** وإيسودن هي إطار **المتصيدة** بدلاً من مدينة مسقط رأسه.

ذلك أن بلزاك ابتعد عن كل إقليمية وهو يكتب كمؤرخ «لحياة المقاطعات» ومعظم رواياته لاتدين بالفضل لذكريات طفولته بقدر ما تندمج بعمق في الوقائع السياسية والاقتصادية للعصر. ومن وجهة النظر هذه يوجد بون بين الآنسة غامار والآنسة كورمون، بطلة رواية **العانس** (وهو عنوان فكر بلزاك به أولاً لقصة **كاهن تور**) ففي قصتنا هذه نجد أن الأكثر «تورينية» من الشخصيات وهو السيد دي بوربون، تنطبق عليه صفة «ابن المقاطعة» بالمعنى الأكثر شمولاً؛ فهذا «العجوز الماكر»، بعكس بيروتو المجرد من كل ذكاء، ومن كل تأثير، يتمتع في موقعه بقدرة تجعل منه، إن دخل فعلاً في صراع مع تروبير، خصماً عنيداً، ويدفع إلى التفكير بقرنيه «ماكر ڤوڤري» الذي تمكن حتى من الاستخفاف بغوديسار.

وهكذا تتلخص في **كاهن تور**، إنما بتهيب المشكلة الحقيقية للمقاطعات؛ والكونغرغاسيون التي انتمى إليها تروبير هي قوة مركزها الرئيس في باريس؛ وخاتمة القصة المضافة في العام ١٨٣٣، تطرح إنما بطريقة لاتخلو من إبهام موضوع المركزية. وروايات مشاهد من المقاطعات في **الملهاة الإنسانية** تستكشف الأوضاع العديدة التي تجابه فيها سلطة مركزية متعسفة مقاومة القدرات المحلية الحمقاء والمسكينة. وهذه المجابهات، في معظم الحالات تدور على حساب المقاطعات. والصراع يخوضه، يوماً فيوماً دون خطة منظمة ومتفق عليها، المُستَغَلون ضد مُستغلّيهم، هو سلسلة طويلة من الهزائم تخالطها بعض انتصارات مدمرة كما في رواية **الفلاحين**. والروايات الطوباوية **كطبيب الريف**، و**كاهن القرية** تقدم أمثلة عن تنظيم معقول يقاوم بفاعلية هذا الانحدار البطيء.

نيكول موزه.

الفهرس

ثلاثية العازبون

الرواية الثانية: كاهن تور

هذه هي الرواية الثانية من ثلاثية العازبين، ويتجلى فيها على قِصَرها تحليل رائع لسيكولوجية العوانس والعازبين. فالتبتل يخلق عند الإنسان بتركيزه كل مزاياه نحو هوى واحد الأنانية، وهي إمّا أن تتصعّد لدى العانس فتكرس كل العواطف الأنثوية لاحترام الذات وكبرياء الكرامة فتنصرف إلى العناية بأهل معرّضين للمرض أو البؤس؛ أو تعمل لتأمين مستقبل لأخ أو أبناء أخ يتامى؛ وهذا ما تطرّق إليه بلزاك في روايات أخرى؛ حجرة العاديات القديمة، ولويس لامبر. وإما أن تنحطّ فتولّد الخبث والنقمة فالانتقام وهذا ما تمثّله صوفي غامار في هذه الرواية.

وأنانية التبتل لدى العازب إما سعي وعزيمة وهذا ما تجلّى في الكاهن تروبير الذي تحدى النبالة وغدا مطراناً. أو هي خمول وانتظار متمثلان في الكاهن بيروتو الذي انتظر اثني عشر عاماً ليرث زميله شابلو ولجأ إلى أصدقائه لإنقاذه من انتقام الآنسة غامار ثم أبعد محروماً إلى ركن قصي يعاني مرارة الخيبة.

رواية جديرة بالقراءة بتمعن وعبرة.

الطباعة وفرز الألوان مطابع وزارة الثقافة

دمشق ٢٠٠٠

سعر النسخة داخل القطر ٧٥ ل.س

في الأقطار العربية ما يعادل ١٥٠ ل.س